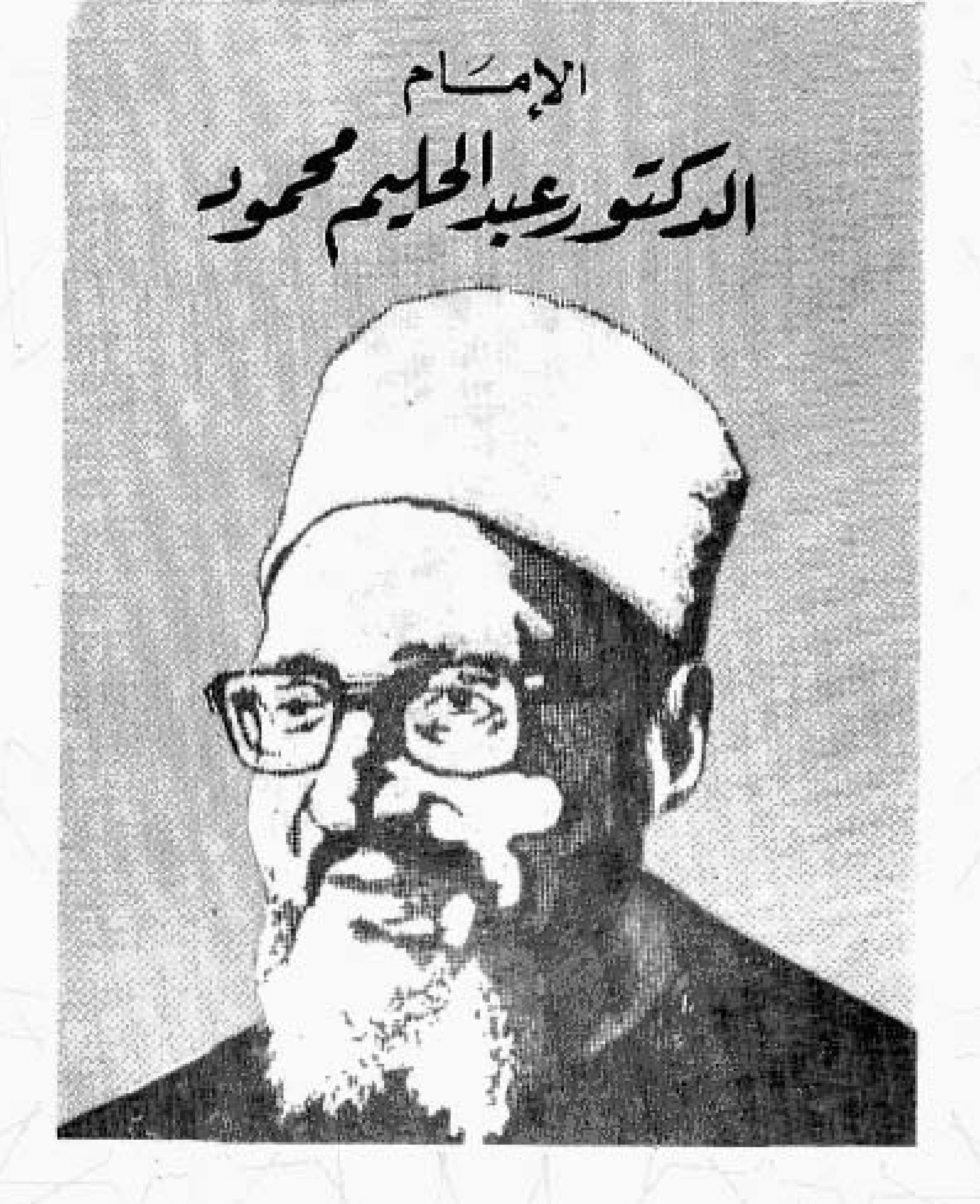
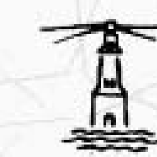
الإمام

الدكتور عبد الحليم محمود



القرآن

في شهر القرآن



دار المعارف

القرآن

في شهر القرآن

الدكتور عبد الحليم محمود

الطبعة السابعة



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة : ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

قال تعالى :

« الٓمٓ . ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُون . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون . أولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِم وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون » .

مقدمة الكتاب

إن الحديث فى القرآن لا ينتهى ، إنه لا يحده فكر بشرى ولا يقيده تصور إنسانى . ولقد كان من الحكمة العميقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ فى تفسيره كلمة كلمة وآية آية وإنما فسر كلمة من هنا وآية من هناك . ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه إن تفسيره هو نفسه – رسول الله – يحد المعنى ويحدده ويقيده . وفسره رسول الله صلّى الله عليه وسلم بسلوكه أكثر مما فسره بقوله المباشر فى معناه . لقد كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن ، فكان خلقه تفسيراً للقرآن ومن هنا كان قوله :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » .

وفسره صلى الله عليه وسلم بأحاديثه الكثيرة – عن طريق غير مباشر – أكثر مما فسره بطريق مباشر .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحلى بالقرآن فكان سلوكه تفسيرًا له وإذا كان قد امتزج بالقرآن فكان نطقه – وما ينطق عن الهوى – تفسيرًا له ، وإذا كانت حياته كلها سلباً وإيجاباً ، قولا وصمتاً حركة وسكوناً إنما هى تفسير للقرآن . . فإن الصحابة ساروا على منواله بقدر استطاعتهم ولم يحاول أحد منهم أن يفسر القرآن كلمة كلمة وآية آية وإنما حاولوا أن يستهدوا بالقرآن وأن يكون القرآن – ما استطاعوا – خلقهم .

لقد كانوا يعملون بالقرآن ، ويتخذونه إماماً وقائدًا ، إنهم لم يتخذوه

دراسة نظرية وإنما اتخذوه هداية عملية حتى إن بعضهم ما كان يجاوز فى الحفظ السورة إلى غيرها إلا إذا حقق ما فيها من أوامر وانتهى عما فيها من نواه ، لقد اتخذوه دستورهم فى الحياة وأقاموه إمامهم فى حياتهم ، لقد طبقوا قواعده والتزموا مبادئه : من جهاد ، وضرب فى الحياة ، وصدق فى القول ، وإحسان فى العمل ، وعبودية أسمى وأقوى وأخشع ما تكون العبودية لله سبحانه وحده وحققوا بذلك الأمة التى أحبها الله ورسوله ، ولقد ربى القرآن على مر العصور رجالا اتخذوه إماماً وهادياً فكانوا مثلا عالياً فى الإنسانية لا يدانيهم غيرهم من سائر الدول . ولا يزال القرآن للآن هو القرآن الذى وحد قبائل ، وجمع أشتاتاً ، وألف بين قلوب ، وكون أمة ، وأرسى قواعد حضارة نعتز بها لأنها حضارة بنيت على التقوى من أول يوم .

والآن ونحن فى شرقنا العربى وفى عالمنا الإسلامى فى سبيل النهوض والتطور والبعث والرقى فى حاجة أمس ما تكون الحاجة ، إلى الاسترشاد بمصدر الهداية ومنبع القوة :

ومن أجل ذلك فإنه حينما طلب إلى أن أؤلف كتاباً لينشر فى شهر رمضان المبارك اتجه فكرى مباشرة إلى القرآن . ولكن المشكلة بدأت أيضاً مباشرة فى صورة سؤال هو : عن أية زاوية من زوايا القرآن أتحدث ؟ وبمجرد أن بدأت التفكير فى الموضوع بدت أمامى الآية القرآنية الكريمة :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ »

لقد بدت أمامى كروضة يانعة يقتطف الإنسان منها أجمل الزهور ويشم من عبيرها أزكى الروائح ، وبدت أمامى كأنها منهج حياة ، وبدت أمامى موحية موجهة ، فسرت فى البحث مستلهماً – على الخصوص – هذه الآية الكريمة .

إنها أول آية نزلت فى القرآن الكريم ، وهى ثرية بالمعانى . وعلى الرغم من أنها كانت جوهر موضوع الكتاب فى ألفاظها وفى جوها فإنى لم أقل عنها كل ما يمكن أن يقال . ولكنى وأنا أسير فى جوها أحببت أن يكون الحديث خطوة فى سبيل إيضاح الطريق إلى النهج على سنن الصدر الأول فى الاستهداء بالقرآن عمليًا ، وفى الأخذ فى الناحيـة العملية عبادة كانت أو ضرباً فى الأرض . ولقد استرشدت بالآية الكريمة فى عدة مجالات منها :

مجال العلم وهو أساس الحضارة والبعث والنهضة ، ولن تنهض أمة إذا لم تتخذ العلم أساساً من أسس نهضتها : العلم بأوسع وأشمل ما تدل عليه كلمة العلم .

واسترشدت بها فى مجال الغزو الفكرى وموقف الإسلام منه وذلك لنرجع إلى النبع الصافى مصدر حضارتنا وأساس هدايتنا .

ولما كان الكتاب عن القرآن الكريم وكان الحديث عن أول آية نزلت منه فقد كان من الضرورى أن نتحدث عن وصف القرآن وعن فضله ، ولقد استفضت فى بيان أوصاف القرآن من القرآن نفسه فتعبير القرآن عن القرآن كله توجيه للمسلم وبيان له عن مصدر هدايته ، ووصف صادق لكتاب النور والهداية .

وشهر رمضان المبارك : شهر الذكر والدعاء ، ولذلك استفضنا فى موضوع الذكر وموضوع الدعاء مستندين فى كل منهما إلى القرآن على الخصوص ، وإذا كنت قد استفضت فى موضوعى الذكر والدعاء فذلك أيضاً لأنهما تعبير من أهم وأصدق مظاهر التعبير عن العبودية لمالك الملك ، ونحن فى عصرنا الراهن أشد ما نكون فى حاجة لتحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى فإن فيها الاستغناء به عمن سواه . فاذا اتجه المسلم الصادق إلى الله فقد استغنى

به واعتز به ومن كان لله كان الله له : أليس الله بكاف عبده ؟ وإذا حقق المسلم العبودية لله فإن الله يتكفل بنصره .

« إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ »

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ »

وكان ختام البحث عن توجيهات القرآن الكريم فى النصر بإذن الله .

وإنا لنرجو الله جلت قدرته وعظم سلطانه أن يوجه الأمة الإسلامية الوجهة التى ترضيه ، وأن يمدها بمدد من عنده ، وأن يكتب لها النصر ، وأن يعيد لها مجدها السابق .

إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

الفصل الأول

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

المنهج القرآنى لحياة المسلم

• كيف كان بدء الوحى ؟

عن عائشة أم المؤمنين – فيما رواه البخارى وغيره – أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى : الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .

ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيرًا قد عمى فقالت له خديجة : يا بن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجىّ هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى .

٥ هذه الليلة :

هذه الليلة المباركة هى التى سماها الله ليلة القدر فقال سبحانه وتعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

ثم أخذ الله سبحانه وتعالى يبين فضلها فقال :

« ومَا أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِم مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، سَلامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

ووصفها الله بأنها مباركة فقال سبحانه وتعالى :

« حٰمٓ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ » .

أول الدخان .

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن هذه الليلة المباركة فى شهر رمضان ، فقال :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .

عن هذه الليلة المباركة نأخذ فى الحديث مبتدئين بأسمى أحداثها ، وأسمى هذه الأحداث هو الوحى الذى يتمثل فى قوله تعالى :

« اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

* اقرأ :

وهذه المادة الأولى من الدستور الإسلامى غنية بالمعانى ، ثرية بالتوجيهات ، ومعانيها وتوجيهاتها ليست آتية من ألفاظها فحسب وإنما هى آتية أيضاً من الجو العام الذى تشير إليه أو الذى توحى به . فهى تبتدئ أولا بكلمة : اقرأ .

إنها تأمر بالقراءة التى هى من أهم وسائل العلم والمعرفة إن لم تكن أهمها ، ويتسم الإسلام لأول لحظة زمنية من حياته ولأول كلمة فيه بسمة العلم ، وتتوالى بعد ذلك الآيات موضحة ومؤكدة هذه السمة جاعلة منها طابعاً وشعاراً .

وإذا كانت الآيات الأولى التى نزلت من القرآن فى الليلة المباركة قد أمرت بالقراءة مرتين ، وذكرت مادة العلم ثلاث مرات ، وذكرت القلم ، فإن الآيات التى نزلت بعد « فترة » الوحى[1] بدأت بحرف من حروف الهجاء : « ن » ، وتضمنت أول قسم أقسم به الله سبحانه فى القرآن وكان هذا القسم بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » .

ثم تتوالى الآيات القرآنية فى فضل العلم ، وفى الحث على التعلم وفى تمجيد العلماء .

لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إلى الله متضرعاً داعياً أن يزيده الله علماً : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » .

وهذا الدعاء الذى يتجه به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله إنما هو من أروع الأمثلة فى التربية . وذلك أنه صادر من الإنسان الكامل ، إنه صادر من رسول الله أكمل الرسل يبين للأمة أن الإنسان ، مهما بلغت به المنزلة،ينقصه الازدياد من العلم . وإذا كان الرسول – أكمل المخلوقات – يرجو أن يزيده الله علما فما بالك بأفراد الأمة ، وتصور زعيم أمة تكبره وتجله وتقدسه يعلن فى صراحة لا لبس فيها أنه ما زال – ولن يزال – بحاجة إلى الزيادة فى العلم : إنه يدفع الأمة بذلك – الأمة التى تقدسه – إلى السير على منواله فترجو أن يزيدها الله علما .

وإن أسمى شىء فى الحياة من غير شك إنما هو الإيمان ، إنه فى الدرجة المطلقة من السمو ويأتى : مع الإيمان تاليا للإيمان مباشرة : العلم .

والعلم فى النظرة الإسلامية من وسائل تثبيت الإيمان ، وزيادته ، وتقويته « ذلك أن العلماء فى الأعراف الإسلامية هم أشد الناس خشية

(١) فى حديث كيف كان بدء الوحى وردت كلمة : « وفتر الوحى » .

لله سبحانه ، يقول تعالى :

« إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ » .

ولا يصل إلى ذروة الإيمان - الذروة المطلقة - من بنى آدم إلا العلماء : إن الله سبحانه وتعالى يقرنهم به وبملائكته فى شهادة التوحيد ، وشهادة التوحيد هى ذروة سنام الإيمان ، إن : أشهد أن لا إله إلا الله ، هى قمة الإيمان ، وهذه القمة لا يرقى إليها إلا العلماء ، يقول سبحانه :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ » .

هذه هى النظرة القرآنية للعلم الذى اتسم به الإسلام منذ « اقرأ » .

* العلم فى الإسلام :

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذى عناه القرآن إنما هو العلم بالدين فحسب وليس الأمر كذلك . فإن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء هم الذين يخشون الله أحاط الآية القرآنية بجو يمنع أن تحدد العلم بالعلم الدينى فقط يقول سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فأخرجنا بهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها ، وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ . إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ» . فاطر : ٢٧ - ٢٨ .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بأن سخر لنا البحار والأنهار والجبال وسخر لنا الشمس والقمر والكواكب . لقد سخر لنا الكون كله .

وهذا الامتنان من الله سبحانه وتعالى علينا بالتسخير إنما هو من أجل أن نصل إلى السيطرة عليها باكتشاف القوانين التى وضعها الله سبحانه

وتعالى لتسخيرها . يقول سبحانه :

« اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ » ٣٢ – ٣٣ إبراهيم .

وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰواتِ وَما فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَباطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ » ٢٠ لقمان .

وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » ٦٥ الحج .

وقال تعالى : « اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ١٢ – ١٣ الجاثية .

إن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان للخلافة الأرضية ، ومنحه العقل يكتشف به ما يهيئ له هذه الخلافة فى العالم المادى ، العالم المحسوس ، ولقد سير هذا العالم المادى بنواميس محكمة مطردة وعلى الإنسان أن يكتشف هذه النواميس ليطوع الكون له ، وعليه أن يكتشف هذه النواميس كمظاهر لعظمة الله وجلاله فتكون من أسباب خشيته سبحانه .

إن عالم التشريح يرى الدقة فى الصنع والإحكام فى التكوين ويرى هذا الإبداع البديع فى التركيب الإنسانى والحيوانى والنباتى فيخر ساجداً لمبدع العالم الذى أحسن كل شىء صنعاً .

وإن عالم الفلك يشاهد بمرصده ويتصور بذهنه هذه السعة الشاسعة المذهلة فى تصورها ، ويعلم أن كل صغير وكبير فيها يسير فى تقدير دقيق : «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» يرى ذلك فيخر ساجدًا للمبدع . ويردد مع القرآن الكريم :

« تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » . أول سورة الملك .

أرأيت إلى غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب ، واكتشاف نواميس الكون فى أعماق البحار ، وعلى قنن الجبال ، وفى مجالات الجو . . إن كل ذلك فى الأعراف الإسلامية الصادقة واجب على المسلمين .

وإنه لمن سوء القصد أن يشيع مشيع أن الإسلام يعارض غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب .

إن الإسلام على العكس يوجب كل ذلك على الأمة الإسلامية التى يحب الله ورسوله أن تكون أقوى أمة فى العالم حتى تؤدى رسالة الله التى كلفت بأدائها .

ونعود فنقول : لقد اتسم الإسلام بالعلم منذ « اقرأ » .

وإذا كان القرآن الكريم قد وجه الأمة الإسلامية إلى العلم ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم – وهو صورة قرآنية كاملة – قد حث المسلمين على العلم فى أساليب شتى ، يقول صلوات الله وسلامه عليه : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة . وإن الملائكة لتضع

أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع . وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم : فمن أخذه أخذ بحظ وافر » رواه أبو داود والترمذى .

* **باسم ربك :**

إن الاتجاه العلمى فى الإسلام بدأ فى صورة صريحة بـ « اقرأ » ولكن « اقرأ » فى الإسلام مشروطة بشرط يوجبه الإسلام ويحتمه ، إنها ليست مطلقة وإنما هى مقيدة بأن تكون : باسم ربك . وهنا يفترق العلم فى صورته الإسلامية عن العلم فى صورته الأوربية . بل تفترق الحضارة الإسلامية عن الحضارة الحديثة ، بل تفترق الحياة الإسلامية فيما يجب أن تكون عليه عن الحياة الأوربية : وذلك أن كل أمر من أمور المسلم يجب أن يكون :

« باسم ربك »

فالعلم أسساً وبواعث يجب أن يكون : « باسم ربك » والعلم أهدافاً وغايات يجب أن يكون باسم ربك . يجب أن يكون العلم فى سبيل الله أى أن يكون للخير وللفضيلة ولإسعاد الإنسانية . فإن ما كان باسم ربك يحقق كل خير ، وكل مكرمة ، وكل فضيلة ، وتسعد به الإنسانية .

والواقع ، والحقيقة أن القراءة المأمور بها فى الآية الكريمة ليست إلا رمزاً فحسب ، إنها رمز لما ينبغى أن تكون عليه جميع أعمال المسلم والآية تريد أن تقول : تكلم باسم ربك ، قم باسم ربك ، اعمل باسم ربك ، لتكن حياتك كلاماً وصمتاً ، حركة وسكوناً : باسم ربك .

والآية الكريمة واضحة وضوحاً بيناً فى الصورة الإيجابية من الأعمال بيد أنها تتضمن الصورة السلبية أيضاً ، هذه الصورة التى صرحت بها الآيات فيما بعد :

« وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » .

وكذلك كل ما ذبح باسم الأصنام فلم يذكر اسم الله عليه : فسق ، يجب اجتنابه :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » المائدة : ٣ .

وسواء أكنا بصدد ما صرحت به الآية الكريمة : « اقرأ باسم ربك » أم بصدد ما تضمنت ، فإن هذه الآية الكريمة التى أجملت دستور الأمة الإسلامية إيجاباً وسلباً ، صراحة أورمزًا أوإشارة : تفصلها ، نوعاً من التفصيل ، آية أخرى فيها أمر إلهى لمن أعده الله ليكون أسوة حسنة للإنسانية :

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

إن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا » .

وهذه الأسوة الحسنة كانت صلاته ، وكان نسكه ، وكانت حياته

كلها بل كان مماته . . كان كل ذلك خالصاً لوجه الله الكريم لا يشركه سبحانه فيه شريك .

والمسلمون مأمورون بأن يسيروا على نهج رسولهم فتكون حياتهم سلباً وإيجاباً ، حركة وسكوناً ، بل يكون مماتهم : لله ، وباسم الله وفى سبيل الله ، إنها فى جميع مظاهرها وظواهرها يجب أن تكون قراءة « باسم ربك » « ألا لِلهِ الدينُ الخالصُ » : فكل ما لم يكن خالصاً لوجهه أو كل ما لم يكن قراءة باسمه فليس عملا إسلامياً : « لَنْ يَنالَ اللهَ لحُومُها ولا دِماؤُها ولَكنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ » .

• لماذا عدلت الآية الكريمة عن لفظ « الله » إلى لفظ : « ربك » ؟

والآية الكريمة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » . ولقد كنا نتوقع ، ونحن بصدد أول آية نزلت من القرآن ، أن تأتى الآية بلفظ « الله » فتكون : « اقرأ باسم الله الذى خلق » وذلك أن هذا اللفظ الكريم : « الله » : يتضمن جميع صفات الله وجميع أسمائه . ولكن الآية الكريمة عدلت عن ذلك إلى لفظ « الرب » . وهذا العدول إنما هو لحكمة بالغة : وذلك أن الله سبحانه ينبه من أول الأمر إلى أن القراءة يجب أن تكون باسم « الرب » باسم « المربى » أى أن القراءة يجب أن تكون فى إطار التربية الإلهية ، ومعنى ذلـك أن الحياة التى رمزت إليها « اقرأ » ، يجب أن تكون فى الإيجاب والسلب ، فى الحركة والسكون ، فى النطق والصمت : فى إطار التربية الإلهية ، فى إطار الأوامر والنواهى ، فى إطار ما رسمه الله للفرد ، وفى إطار ما رسمه الله للمجتمع .

والعدول عن اللفظ الكريم « الله » إلى اللفظ الكريم « الرب » إنما

كان – فى بعض أهدافه – لهذا . إن هذا العدول يريد أن يقول للإنسان : إنك حينما تدخل – حرًا مختارًا – فى عهد الله وفى دينه وفى ميثاقه : يجب أن تروض نفسك منذ المبدأ على أن تستجيب استجابة مطلقة لله سبحانه وتعالى فى أمره ونهيه .

يجب أن تعقد العزم على أن تكون ربانيًا .

• « الذى خلق » :

أما ما يبرر ضرورة هذه الاستجابة إلى « ربك » فإن البرهان الضخم الحاسم يتمثل فى قوله تعالى : « الذى خلق » .

وذلك أن الذى خلق أى الذى كون جميع أجزائك ، وركب جميع أعضائك ، ورتب جميع خلايا جسمك وجميع ذرات وجودك وأنشأك خلقاً سويًا – إن هذا الذى فعل ذلك – هو الأعرف بك . وحينما يضع دستوراً لك ، وحينما يرسم لك الحياة التى تسير عليها فإنما يفعل ذلك على علم ، ويفصل ذلك عن حكمة . إنه البارئ، إنه المكون ، إنه الخالق ، إنه المبدع . فكيف يتأتى أن نعدل عن تربيته إلى تربية مخلوق . ومهما بلغت عقلية هذا المخلوق ومهما بلغ نضجه فإنه مخلوق لا خالق ، مكوَّن لا مكوِّن . ولا يتأتى فى عرف ذوى البصائر المستنيرة العدول عن تربية الخالق إلى تربية المخلوق ، والعدول عن تربية الرب إلى تربية المربوب ، إنه عدول عن تربية الكامل إلى تربية الناقص .

• تلخيص ما سبق :

لعلنا بتوفيق الله قد وضحنا بعض ما تدل عليه المادة الأولى من الدستور القرآنى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ونلخص ما سبق فى أن هذه المادة تدل على :

١ – العلم : « اقرأ » .

٢ – أن تكون الحياة الإسلامية « باسم ربك » ، أى متجهة إلى الله سبحانه وتعالى .

٣ – أن تكون هذه الحياة فى إطار التربية الإلهية ويدل على ذلك استعمال لفظ « ربك » والعدول عن لفظ « الله » .

٤ – ضرورة الاستجابة إلى هذه التربية بالذات دون غيرها ، لأنها تربية « الذى خلق » .

الفصل الثانى

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ

توجيهاتها بالنسبة للغزو الفكرى والثقافات الوافدة

ولكننا لم ننته بعد من دلالات الآية الكريمة . وذلك أننا إذا كنا قد ذكرنا بعض هذه الدلالات متخذين ألفاظ الآية أساساً :

فإن للآية جواً وروحانية ناشئة عن تركيبها العام وعن مغزاها الذى ينبثق عن هذا التركيب . وينبثق عن الجو الذى قيلت فيه . وعن ذلك سنأخذ فى الحديث الآن والله الموفق .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

إذا قرأ الإنسان باسم ربه ، إذا استجاب الإنسان – بمقتضى دخوله فى عقد الإيمان – للتربية الإلهية ، إذا كيّف الإنسان حياته كلها لتكون قراءة باسم ربه . . فقد أسلم .

وإن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » لا يخرج معناها ، فى ثمرته ، عن معنى : « أسلمت » والمسلم هو من دخل فى الإسلام ، والإسلام هو أن يسلم الإنسان وجهه لله . ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال :

« أن تسلم لله وجهك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

والإنسان إما مسلم صادق وإما مسلم مزيف . والمسلم الصادق لا يسمح لنفسه أن ينهل من منابع غير إلهية فى الأمور التى أنزل الله فيها وحياً ، إن

المؤمن الصادق لا يتخذ له فى العقيدة أو فى الأخلاق إماماً غير إمامه الربانى ، والأمور التى أتى بها الدين ونزل بها الوحى وصرح بها الكتاب هى مبادئ لا يجوز – فى أعراف المؤمنين الصادقين – العدول عنها إلى غيرها .

والموقف القرآنى فى ذلك حاسم كل الحسم :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على أن تستمر المنابع التى يستقى منها المسلمون صافية صفاء مطلقاً ، وعلى أن تستمر القراءة [1] « باسم ربك » لا تستقى إلا من المنابع الإسلامية الصافية .

وأول منبع هو القرآن الكريم ، ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يختلط بالقرآن غيره ، وكان شديد الحرص فى ذلك إلى درجة أنه لم يسمح ، فى العهد الأول من الوحى ، أن تكتب الأحاديث التى كان ينطق بها حتى لا تختلط بالقرآن ، ثم لما بانت معالم القرآن ، وبدت أوصافه الذاتية فى وضوح وأسفرت آياته عن شخصيته سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة السنة .

ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يلوث الدين الإسلامى بغيره . ولقد روى المحدثون فى ذلك أحاديث فى غاية العمق . منها ما رواه الإمام أحمد ، قال حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبى ، عن جابر : « أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) لعل القارئ يلاحظ اننا نستعمل القراءة هنا على أنها رمز للحياة كلها فى حركتها وسكونها كما سبق أن أوضحنا ذلك .

قال : فغضب وقال : أتهوكون[١] فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعنى » إسناد صحيح « قصص الأنبياء ص ٣٠٨ ج ١ » .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن الزهرى أن حفصة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف فى كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبى عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه ، فقال : « والذى نفسى بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتمونى ضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم[٢] حظى من الأمم » .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقى أيضاً عن أبى قلابة « أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل : اكتب لى من هذا الكتاب قال : نعم فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له فى ظهره وبطنه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب .

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذلك : « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً ، وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى الحديث اختصاراً ، فلا يهلكنكم المتهوكون » (أى الواقعون فى كل أمر بغير روية) . وقيل :

---

(١) أى أتتشككون فى ملتكم .

(٢) أنتم : أى ، أمة الإجابة ، أى الأمة الإسلامية كلها ، والله سبحانه وتعالى يقول ورسوله صلى الله عليه وسلم يعلن فى القرآن عن رسالة الله التى أرسله بها . لأنذركم به ومن بلغ .

المتحيرون إلى ذلك من الأخبار.

وأخرج الفريابي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن يحيي بن جعدة قال:

جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم، إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم»، فنزلت: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (العنكبوت: ٥١).

وأخرج الإسماعيلي في معجمه، وابن مردويه عن يحيي هذا ما هو قريب مما ذكر مرويًّا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبد الغفار بن عبد الله ابن الزبير حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد ابن عرفطة قال: «كنت جالساً عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس، قال: نعم، فضربه بقناة معه، قال فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس، فجلس، فقرأ عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الٓر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»، فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل مالي يا أمير المؤمنين؟

فقال أنت الذي نسخت كتاب دانيال، قال مرني بأمرك أتبعه، قال انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً

من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكتك عقوبة . . ثم قال اجلس فجلس بين يديه ، فقال :

انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماذا فى يدك يا عمر ؟ » قلت يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه . ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم : السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارًا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ولا يغرّنكم المتهوكون » قال عمر فقمت فقلت : رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولا .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن طريف ما يروى عن السيدة عائشة رضوان الله عنها ما أخرج ابن عساكر عن أبى مليكة قال : أهدى عبد الله بن عامر بن ركن إلى عائشة رضى الله عنها هدية فظننت أنه عبد الله بن عمر وفردتها وقالت :

يتتبع الكتب ، وقد قال الله تعالى :

« أو لم يكفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلَى عليهم » .

فقيل لها : إنه عبد الله بن عامر فقبلتها[1] .

ولقد اختلف موقف المسلمين ذوى الألباب الزاكية اختلافاً صريحاً

---

(١) انظر فى كل هذه الأحاديث تفسير ابن كثير ، الألوسى ، وقصص الأنبياء لابن كثير عند تفسير أول سورة يوسف عليه السلام : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ، وعند تفسير : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » .

سافراً بالنسبة للأخذ من مجالى الحضارة : المادى والروحى ، أما موقفهم بالنسبة للمجال المادى من الحضارات التى لم تنشأ فى الجو الإسلامى سواء أكان ذلك فى القديم أم فى الحديث ، فقد كان ولا يزال ، موقف المشجع على الأخذ منها أينما كانت ، وعلى المساهمة فيها مساهمة فعالة وعلى الارتقاء بها وتطويرها تطويراً مستمراً . إن اكتشاف نواميس الله فى الكون من واجبات المسلم . ولقد ترجم سيدنا عمر بن عبد العزيز كتاباً فى الطب لما رأى حاجة المسلمين إلى ذلك .

ولما ترجمت كتب الكيمياء والطبيعة والطب والفلك فى عهد أبى جعفر المنصور وبعده لم يجد ذلك من المسلمين إلا كل ترحيب .

ولكن موقف المسلمين فى الجانب الروحى من الحضارات القديمة والحديثة موقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف .

لقد انتهر الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر فى شدة لأنه أتى بصحف من التوراة يتلوها ، وغضب صلى الله عليه وسلم على كل من حاول أن يستقى فى العقيدة والأخلاق من منبع غير القرآن والسنة النبوية الشريفة . وسار المسلمون على هذا النسق من التفرقة بين الجانب المادى والجانب الروحى حتى كان عصر المأمون . ومهما تحدث المتحدثون عن الازدهار والقوة والمجد فى عصر المأمون ، ومهما قالوا من أنه العصر الذهبى للأمة الإسلامية فإنه مع ذلك عصر يتسم بسيئتين : إحداهما لا يغفرها له المحبون للحرية ، والثانية لا يغفرها له أهل الصلاح والتقوى .

أما الأولى فإنها دخول المأمون فى النزاع الذى كان بين علماء المسلمين فى مسألة خلق القرآن . لقد دخل المأمون فى هذا النزاع بقوة الدولة : رغبة ورهبة . لقد دخل متحيزاً لفئة ، منكلا بالفئة الأخرى .

ولقد تحيز للمعتزلة ، والمعتزلة قوم حكموا أهواءهم فى الدين وحسبوا أن ما يقولونه إنما هو حكم العقل . ولو كان حكم العقل لما اختلفوا هم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . إنهم لم يأخذوا الدين مأخذ المستهدى ، ولم يعترفوا بأن الدين نزل هادياً للعقل ، وإنما رأوا أن العقل هو المرتبة الأولى فى معرفة الخير والشر . وهم قوم كانوا يتسمون بالتحمس الشديد للجدل النظرى ويتسمون بالفتور الشديد للجانب العملى من الدين . ومن أجل ذلك انصرف جمهور الأمة الإسلامية عنهم .

وكان فى مواجهة هؤلاء طائفة من علماء المسلمين تتسم بالصلاح والتقوى ، وتوطين النفس على الاستهداء بالدين وعلى السير فى ركاب النص القرآنى أو الحديث النبوى . ولقد كانت هذه الطائفة تتسم بالتحمس الشديد للجانب العملى من الدين . وكانت تتسم بقوة الإيمان فصير ذلك حياتها إلى جهاد فى سبيل الله وكفاح من أجل السير على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضى الله عنهم والصدر الأول للأمة الإسلامية ، وكانت تضم أمثال الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك ، وكان يهتدى بهديهما ويقتدى بسلوكهما جمهور الأمة الإسلامية .

لقد ترك المأمون هذه الطائفة وانحاز إلى المعتزلة ، انحاز إلى المعتزلة بقوة الدولة فأغدق المال على أنصاره ، وأخذ ينكل بكل من يعارضه . وكان المعارضون له هم من المتسمين بالصلاح الحقيقى والتقوى الصادقة : إنهم أمثال الإمام الصالح أحمد بن حنبل .

وما كان لنا أن نعيب دخول المأمون فى نزاع علمى لو أنه دخل دخول الأب الرحيم المهدئ للنزاع ، لو أنه دخل دخول الأخ الأكبر ملطفاً ومانعاً للحدة بين الإخوة . إننا لا ننتقد الدخول فى النزاع وإنما ننتقد الكيفية

والصورة ، إنها ليست صورة دخول علمى فى موضوع نقاش دينى ، وإنما هى صورة دخول جبروتى ، دخول من يريد أن يأمر ليطاع ، دخول من لا يريد أن يصغى إلى نصح ولا أن يستجيب لبرهان :

هذه سيئة ، وهى سيئة لا يرضى بها أحرار الفكر ولا يرضى بها المتدينون .

أما الثانية : فهى أنه برغم موقف جمهور المسلمين الحاسم من التراث الروحى للأمم الأخرى ، وبرغم معارضتهم الشديدة للغزو الفكرى ، فإن المأمون تحداهم تحدياً سافراً آمراً بترجمة التراث الروحى والتراث الأخلاق للأمم الأخرى ، يونانية كانت أوفارسية أوغيرها .

لقد ظن المأمون أن ذلك سينصره فى القضية التى اتخذ الخصومة فيها مسألة كرامة ذاتية .

ولقد حكى ابن النديم فى ذلك رؤيا للمأمون معبرة أوضح ما يكون التعبير : عن نزعة المأمون أوعن نزغته .

لقد رأى المأمون فيما يراه النائم : رجلا أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة ، حسن الشمائل ، جالساً على سرير ، قال المأمون :

وكأنى بين يديه قد ملئت هيبة . من هو هذا الرجل ؟ أهو أحد الخلفاء الراشدين ؟ أهو أحد كبار الصالحين ، إن المأمون يصفه وصفاً جميلا . وصورته تملأ المأمون هيبة : فمن هو يا ترى ؟

يقول المأمون :

فقلت : من أنت ؟

فقال : أنا أرسطو.

فسررت به ، وقلت : أيها الحكيم ، أسألك ؟

قال : سل . .

قلت : ما الحسن ؟

قال : ما حسن فى العقل .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن فى الشرع .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما حسن عند الجمهور .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ثم لا ثم .

قلت : زدنى .

قال : عليك بالتوحيد .

وسواء أصحت هذه الرؤيا أم لم تصح فإنها تعبير صادق عما كان فى نفس المأمون وفى نفس المعتزلة من إكبار لأرسطو .

ولعل القارئ قد لاحظ مبدأ فى غاية الخطورة وهو مبدأ تقديم العقل على الشرع ، لقد جعلت رؤيا المأمون العقل فى الدرجة الأولى وجعلت الشرع فى الدرجة الثانية وهو مبدأ معروف عند المعتزلة وعند المأمون ، وهو مبدأ لا يقره أمثال الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين .

أما التوحيد فى الرؤيا فإنه التوحيد الذى عناه المعتزلة والذى عبر عنه أهل السنة بكلمة : « التعطيل » .

واستيقظ المأمون من رؤياه : فأمر بترجمة كتب أرسطو .

ولاقت هذه البدعة الجديدة ، بدعة ترجمة كتب العقائد ، وكتب الأخلاق معارضة شديدة فى الأجواء الإيمانية ، لقد رأت هذه الأجواء

أن فى عقائد المسلمين وفى أخلاق المسلمين من الصدق ومن الحق ومن الوضوح ما يغنى عن غيرها .

ورأت أن عقائد المسلمين وأخلاق المسلمين قد حددها الأسلوب الإلهى وبينها الأسلوب النبوى .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى عبر عنها . وإن رسوله صلى الله عليه وسلم قد طبقها . وهذه ميزة لا توجد فى غير الدين الإسلامى .

أمن المعقول أن يدع عاقل من العقلاء الرسم الإلهى لصلة الإنسان بربه ولصلة الإنسان بالآخرين إلى رسم بشرى لهذه الصلة : رسم يخطئ ويصيب . ويضل ويهتدى ؟

أمن المعقول أن يدع الإنسان الأسلوب الإلهى فى نضرته ودقته وإحكامه ، وفى وضوحه ، وبلاغته ، وإعجازه ، إلى أسلوب بشرى يترجمه أسلوب بشرى آخر .

إن البشر فى تأليفهم بشر مهما بلغوا من الدقة . ورحم الله العماد فى قولته المشهورة من أنه لا ينتهى الإنسان من تأليفه إلا ويتمنى أن لو أعاد التأليف من جديد ليغير ويبدل ويزيد ويحذف . وهذا شأن البشر ، شأنهم على مر العصور مهما بلغوا من العبقرية والنضج .

وهذا التأليف على هذا النمط لا تقرؤه بلغة صاحبه وإنما تقرؤه بلغة مترجم يترجم ما فهم هو من معانى المؤلف ، إن الترجمة مهما بلغت من الدقة ليست إلا فهم المترجم لكلام المؤلف .

ولم الترجمة ؟ أفى العقيدة التى جاء بها القرآن والسنة نقص يستكمل ؟ ، أفى الأخلاق التى رسمها الله ورسوله خلل تزيله ترجمة كتب الوثنيين ؟

إن الآراء التى لا تستند إلى وحى معصوم هى آراء وثنية . وإن الفرق

بين الوثنية والإيمان إنما يرجع إلى أن الإيمان مصدره الوحى ، أما الوثنية فمصدرها البشرية فى عجزها وقصورها وجهلها ، وإن البشرية مهما بلغت فى الرقى الحضارى لا تنفك متسمة بالعجز والقصور والجهل . وإن الاكتشافات الحديثة التى لا تنقطع والتى تطلع علينا الأخبار منها كل يوم بجديد لهى أوضح دليل على عجز البشرية وقصورها وجهلها .

ولن تبلغ البشرية يوماً ما حد الكمال لأنه لن تصل البشرية يوماً إلى الانتهاء من اكتشاف كل مجهول ، والكشف عن كل غامض وإزالة الحجب عن جميع المعميات ؟ .

أنترك العصمة المطلقة فى الوحى ، ونترك بيان من لا ينطق عن الهوى لنأخذ بقول هذا أو ذاك ممن يتسمون دائماً بالنقص والعجز ، وممن جهلهم أكثر من علمهم مهما بلغوا فى المعرفة والعلم ؟

هذه الآراء التى كانت تدور فى البيئة الإسلامية إذ ذاك والتى كان يؤمن بها ويتقبلها الأغلبية من الشعب لم تقف فى وجه الترجمة ولم تحل دون تنفيذ المأمون لفكرته .

لقد نفذ المأمون الفكرة . ووجد الأمراء أن من رضاء المأمون أن يحبذ الإنسان هذه الفكرة ، وأحب الأمراء رضاء المأمون : فساهموا فى مشروع الترجمة . ووجد الأثرياء أن من وسائل التقرب إلى المأمون أن يساهموا فى مشروع الترجمة : فعملوا على المساهمة بمالهم فى مشروع الترجمة . ووجد المثقفون أن من عوامل التقرب من المأمون أن ينشروا آراء أرسطو وأفلاطون وغيرهما : فتعلموها ، ودرسوها ، وعلموها ودرسوها .

وإذا كانت أفكار اليونان قد بدأت الدخول فى البيئة الإسلامية على استحياء فإنها ، بمر الزمن ، استوطنت وألفها كثير من الناس عن

طريق التكرار . وشاعت الآراء واستقرت بالإلف والعادة والتبنى والدعاية .

ومنذ ذلك الحين أصبح بجوار :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » . . أصبح بجوارها : « اقرأ باسم أرسطو ، واقرأ باسم أفلاطون » ، وفى العصور الحديثة : « اقرأ باسم ديكارت » أو اقرأ باسم . . .

وبدأ انحلال الأمة الإسلامية لأنها لم تعد تقرأ « باسم ربك » أو قل إن انحلال الأمة الإسلامية وضعفها بدأ منذ أن بدأت تشرك مع التعاليم الإسلامية غيرها .

وإذا كان عصر المأمون يؤرخ العصر الذهبى للأمة الإسلامية، فإنه أيضاً يؤرخ اللحظات الأولى لدبيب الضعف فى هذه الأمة .

إن الفلسفة اليونانية والفكر النظرى فى العقيدة والأخلاق، والانصراف إلى ذلك والاشتغال به وجعله مظهراً للحضارة والرقى والمدنية لا ينتج إلا فتوراً فى الإيمان وتخاذلا فى العزائم وتشككاً فى كل القيم .

وهل ينتج البحث العقلى : البحث فى القيم والمعايير الدينية والأخلاقية — على أسلوب الإنكار والإثبات ، والأخذ والرد ، والجدل والمماراة — إلا فتوراً واستهانة ؟ .

هل أنتجت الفلسفة إيماناً قوياً ؟ هل أنتجت عزائم من حديد ؟ هل قادت إلى النصر؟

وتأمل معى ملياً فى أسباب نهضة أوربا فى عصورها الحديثة .

إننا نعرف أن أوربا عاشت أزماناً متطاولة فى جهل وهمجية وانحطاط . ولقد عاشت كذلك لأنها كانت تتبنى نزعة أرسطو أو منهج أرسطو ، أى أنها كانت تتبنى الجدل الفارغ الذى لا يؤدى إلى نتيجة ، ولا ينتهى إلى ثمرة :

اللهم إلا الفتور والتخاذل والشك .

ثم بدأت أوربا تتنبه إلى منهج آخر فى الحياة وبدأ « بيكون » يعلن عن طريقة وأسلوب للمعرفة لا يعتمد على العقل النظرى البحت ، وبدأ منهج التجربة والملاحظة والاستقراء .

وأرخ هذا الاتجاه التجريبى بدء عصر النهضة الأوربية . وكما أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر الأرسطى[١] انحطاط الأمم الإسلامية ، فقد أرخ بدء التخلى عن هذا الفكر بدء النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان المسلمون قد بلغوا قمة مجدهم حينما كانوا يقرأون « باسم ربك » وحده فإنهم قد بلغوا قمة ضعفهم حينما بلغت « باسم ربك » حدها الأدنى أى حينما تخلوا أو كادوا عن أن يتخذوا من منابع دينهم الصافية موجهاً وقائداً .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، أى العودة إلى : « اقرأ[٢] باسم ربك الذى خلق » .

هل يعنى ذلك أن تمنع الترجمة ؟ هل يعنى ذلك أن نعيش فى عزلة عن الفكر العالمى ؟ هل يعنى ذلك أن نمنع أنفسنا عن الاطلاع على الثمار التى أنتجتها عقول العباقرة أمثال أفلاطون وديكارت واسبينوزا وبرجسون ؟ ليس إلى هذا قصدنا وإنما قصدنا إلى معنى يعلمه فى وضوح كل من يتتبع تاريخ الفكر البشرى عبر القرون .

إن الظاهرة الواضحة فى تاريخ الفكر البشرى الذى لا يستند إلى

(١) لا نقصد أرسطو بالذات ، أو أرسطو فقط ، وإنما نقصد الفكر النظرى فى مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق الذى لا يستند إلى وحى معصوم .

(٢) نعود فنقول نعنى بـ « اقرأ » رمزاً للحياة كلها فى حركتها وسكونها ، فى صمتها ونطقها .

التجربة أو الملاحظة أنه متغير باستمرار.

وأنه لا يستقر على رأى وأنه فى صيرورة دائمة . وهذه الصيرورة ليس من المحتم أن تسير دائماً فى طريق الجديد بل يجوز أن تعود القهقرى فترجع إلى مذهب تخلت عنه ، وتعود إلى ما كانت قد عرفت عنه . ويأخذ القديم طريقه إلى الانتشار من جديد ، ثم يعفى عليه الزمن مرة ثانية أو ثالثة وهكذا يعيد التاريخ الفكرى نفسه تارة ويتجدد أخرى .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ليس من المحتم أن يكون الجديد ترقياً فى الفكر أوسموًا فى الآراء . بل قد يكون على العكس من ذلك انتكاساً وانحداراً .

وهذه الظاهرة البادية لكل دارس جعلت بعض المفكرين يقولون إن الآراء النظرية البحتة مثلها كمثل أزياء النساء تتبدل كل عام . وهذا التشبيه للآراء العقلية البحتة فى جانب العقيدة ، وفى جانب الأخلاق بأزياء النساء فى التبدل والتغير والاختلاف والتطور من القديم إلى الجديد ومن الجديد إلى القديم تشبيه فى غاية الصدق .

لقد كادت فرنسا يوماً ما أن تؤله « أوغسط كومت » لقد كان أتباعه ومريدوه يقدسونه ولقد وضعوه على القمة . . ومضى الزمن وأصبحت آراء « أوغسط كومت » لا يقام لها وزن اللهم إلا أنها حلقة من حلقات التاريخ الفكرى الذى عفى عليه الزمن .

ولقد كانت السوفسطائية يوماً من أكثر المذاهب انتشاراً فى اليونان ثم عفى عليها الزمن واندثرت وتبينت الأمة اليونانية أنها مذهب هدام . بل يصل به الهدم إلى هدم نفسه . وانتهت الأمة اليونانية منه ودفنته وتعفن كمذهب . ثم بعثته طائفة من المنحرفين فى العصر الحديث تحت اسم « الوجودية » وليست الوجودية إلا هذا المذهب المتعفن الذى تقايأه بعض

المنحرفين فى اليونان منذ ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً من الزمن .

وإذا رأيت فى بعض أحياء أوربا فتى يلبس لبس فتاة وتسأل لماذا يفعل ذلك قيل لك إنه وجودى ، وإذا رأيت فتاة تخرج على أدنى درجات العرف الأخلاقى وسألت عنها قيل لك إنها وجودية ، وإذا رأيت إلحاداً سافراً وكفراً صراحاً ، وسألت : قيل لك إن ذلك وجودية .

وإيمان الوجودى – إذا آمن – مسألة مزاج ، إنه «كيف» كشرب السجائر مثلا وكشرب الشاى فى مواعيد معينة ، وهو بهذا الاعتبار ليس إيماناً ، فليس فى الوجودية فى حقيقة الأمر إيمان بالمعنى الصحيح للإيمان .. واشمأز الغرب من الوجودية ، وها هى ذى تلفظ أنفاسها الأخيرة هناك ، وذلك لأن الغرب شاهد المظاهر وشاهد النتائج فعرف أن الوجودية مذهب المتحللين والمنحرفين .

ولقد طنطنت الدنيا لمذهب ديكارت ، وصفق العالم له ، وظن الدكارتيون أن منهج ديكارت سيحل كل مشكلة ، ويزيل النقاب عن كل محجوب ، ويكشف عن كل مخبأ . وتمضى الأيام ، وإذا بالمشاكل هى المشاكل ، والمحجوب هو المحجوب ، والمخبأ هو المخبأ برغم استعمال منهج ديكارت بتحكيمه عن طريق ديكارت نفسه وعن طريق الديكارتيين . وتمضى الأيام كذلك ، وإذا بآراء ديكارت فى الطبيعة – آراؤه التى بناها متخذاً فيصلا – قد انهارت رأساً على عقب .

ولنتحدث الآن عن الفلسفة بصراحة .

إن من خصائصها – على مر الزمن – أنها تبدأ من الصفر : أى أن كل فيلسوف يأتى يعلن أن العالم منذ أن وجد لم يظهر على وجهه شخصية وصلت إلى الحق فى محيط ما وراء الطبيعة ، وفى محيط الأخلاق ، وأن

مجال العقائد ومجال الأخلاق ما زال بحاجة إلى نظرة من الأساس . إنه ما زال بحاجة إلى بناء يبدأ بوضع اللبنة الأولى تليها اللبنة الثانية إلى أن يتم الصرح . ويعلن الفيلسوف بذلك أن جميع الصروح القديمة فى تصميمها خلل ، وفى وضعها فساد ، وأنها خطأ فى منهجها وفى وضعها ، وأن العالم الذى عاش بهذه الطريقة قد عاش – منذ أن وجدت هذه الصروح – فى أوهام . إنه يعلن بذلك أن آراء الفلاسفة السابقين ... أوهام .

ومن خصائص الفلسفة أنه لا مقياس لها تلجأ إليه عند الاختلاف ، لقد أخفق منطق أرسطو عند أرسطو نفسه وأخفق عند كل المناطقة ، إنه لم يحسم الخلاف فى مسألة ما .

وأخفق منهج ديكارت عند ديكارت وعند كل من استعمله ، ومنهج أرسطو ومنهج ديكارت هما أشهر المناهج فى الفلسفة القديمة والحديثة . كيف نصل إلى الحق إذا اختلفنا فى مسألة ؟ كيف نحسم الخلاف إذا أردنا ذلك ؟ كيف نتفق ؟ إن ذلك لا سبيل له فى الجو الفلسفى .

إن العلم المادى إذا اختلف فيه العلماء فإن الفاصل فى هذا الخلاف إنما هو التجربة أو الملاحظة .

والملاحظة والتجربة فيصل فى الجو العلمى المادى . ما هو الذى – فى الجو الفلسفى – بمثابة التجربة فى الجو العلمى ؟ لا شىء .

ومن هنا نشأ أمران هما من خصائص الفلسفة .

أما أحدهما فهو أن الفلسفة فى جميع آرائها – عقليًّا – ظنية ، وذلك أنه لا وسيلة للفصل فيها بين الخطأ والصواب .

أما الثانى فهو أن الخلاف فى الفلسفة سيستمر أبد الدهر : ستجد دائماً المؤيد للفكرة – أى فكرة – والنافى للفكرة – أى فكرة – ستجد المثبت والمنكر .

وينتج عن كل ما قدمنا نتيجة لازمة هى من خصائص الفلسفة أيضاً وهى أن الفلسفة لا تقدم فيها . إن مسائلها القديمة هى مسائلها الحديثة ومشاكلها مشاكلها فى كل عصر وفى كل زمن . إن مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد أفلاطون هى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى عهد ديكارت ، وهى مسائل الفلسفة ومشاكلها فى الزمن المعاصر وحتى مضحكات الفلسفة — وللفلسفة مضحكات قد صورت بصورة مشاكل — حتى مضحكات الفلسفة : المشكلة ، لا تزال هى هى . إن برجسون فى العصر الحديث قد أخذ يتحدث عن مشكلات الفيلسوف الساخر زينون الذى ابتدع فى صورة طريفة من البدهيات مشاكل وحاول توريط الفلاسفة فيها . ونجح فى أن جرهم إلى البحث فى البدهيات ، وإلى جعلها مشاكل ، وإلى الوقوف عاجزين أمامها مع بداهتها ، وسخر منهم زينون ، وسخر منهم كل ذى بصر وبصيرة .

ومن كل ذلك أيضاً نتبين أن الفلسفة — وهذا من خصائصها أيضاً — لا رأى لها معيناً فى أية مسألة من المسائل وذلك أن لها فى كل مسألة رأيين متعارضين أو آراء متعارضة .

ولعله أصبح الآن سافراً أن من « يقرأ باسم الفلسفة » فإنما يقرأ باسم سراب .

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من كل ما تقدم فهى أننا لو قرأنا الآراء النظرية البحتة على هذا الوضع الذى أوضحناه فلا بأس وتكون بذلك القراءة باسم الفلسفة أو باسم الجانب النظرى من الفكر الإنسانى مسلاة وتسلية وسياحة فى أجواء تختلف وتتعارض وتتناقض ونستفيد منها عبرة فيما يتعلق بعجز الإنسان وقصوره : ونعود من هذه السياحة مقتنعين بوجوب : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

الفصل الثالث

اقرأ باسم ربك الذي خلق

لقد نزلت فى ليلة القدر

• **ليلة القدر :**

يقول الله تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .

ويقول سبحانه :

« إِنَّا أنزلْناهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ » .

وليلة القدر إذن : هى فى شهر رمضان ، أخذًا من هذه النصوص الكريمة .

ويخبر سبحانه ، عن هذه الليلة ، أنها خير من ألف شهر ، إذ تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر .

وهى فضلا عن ذلك : سلام يستمر من غروب الشمس حتى مطلع الفجر .

ومن أجل هذا الفضل العظيم ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يستعد لها بالعبادة ، ويهيئ الجو الروحى المناسب لنزول الملائكة والروح ، والمناسب للسلام القلبى ، الذى هو ثمرة التوبة ، والإنابة والتقوى ، والذى

هو اطمئنان النفس إلى الله ، فيخاطبها سبحانه خطاباً تفهمه .

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ : ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ – فى هذه الدنيا وفى الآخرة – رَاضِيَةً – عنِ الله ، مَّرْضِيَّةً منه – فادخلى فى عبادى – عاجلا – وادْخُلِي جَنَّتِي . آجلا .

وكانت التهيئة التى يقوم بها ، صلى الله عليه وسلم ، استعداداً لشروق نور هذه الليلة الشريفة ، إنما هى الاعتكاف .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يعتكف عادة فى العشر الأواخر من رمضان ، فيدخل المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من الشهر المبارك : يدخل متفرغاً للعبادة ، متجهاً إلى الله بكل كيانه .

وما من شك : فى أن الاعتكاف فى المسجد ، يهيئ الجو لجمع الخواطر ، ويهيئ الصفاء القلبى ، فيتفرغ الإنسان للطاعة ، متشبهاً بالملائكة ، ويتعرض بذلك لليلة القدر .

وقد كان صلى الله عليه وسلم ، يحث الصحابة على هذا الاعتكاف ويشجعهم عليه ، التماساً لمرضاة الله تعالى ، وتعرضاً لإشراق ليلة القدر .

وهى ليلة يكون فيها انتشار الروحانية بقراءة القرآن ، والصلاة والذكر ، وتنزل فيها الملائكة طائفة بالذاكرين ، مستغفرة لهم ، ومصلية عليهم ، ومبشرة لهم .

عن أنس رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا كان ليلة القدر ، نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد ، يذكر الله تعالى » .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ :

أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

إن أنوار المؤمنين المتبتلين فى تلك الليلة ، تتلألأ متألقة فيما بينهم ، وتمتزج فتجذب بتلألئها الأرواح الملائكية ، فتقترب من المتعبدين ، فتزيد فى الصفاء ، فيكون انشراح الصدور ، ووضع الأوزار التى تنقض الظهور ، ويكون غسل القلب بالماء والثلج والبرد ، وتتوفر بكل ذلك وسائل التعرض لنفحات الله .

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

وليلة القدر من نفحات الله التى يستجاب فيها الدعاء ، وتغفر الذنوب للتائبين المنيبين ، وهى فى أوتار العشر الأواخر من رمضان .

يقول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه :

« تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا دخل العشر الأواخر من رمضان : أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجد ، وشد المئزر . ولكن أى ليلة هى ؟

لقد أخفاها الله سبحانه لحكمة هى : إحياء عدد من الليالى فى طاعة الله ، التماساً لها ، أما هذا الذى وهبه الله التوفيق ، فأحياها ملتمساً مرضاة الله فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه .

يقول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام البخارى رضى الله تعالى عنه :

« من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً : غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وبعد :

فقد روى الإمام الترمذى ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :
« قلت : يا رسول الله : أرأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ما أقول فيها ؟ »

قال صلى الله عليه وسلم :

« قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو ، فاعف عنى » .

الفصل الرابع

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ

إنها بداية الوحى وأول آية نزلت من القرآن

• وصف القرآن :

إن أصدق وصف للقرآن هو الوصف الذى أتى به القرآن نفسه ، ومهما قال القائلون فى وصفه وتفنن الكتاب فى إعطاء صورة عنه فإنهم لن يبلغوا الوصف الذى وصفه به منزله سبحانه وتعالى ، ونحن فيما يلى نذكر بعض ما ورد فى القرآن عن القرآن :

القرآن من أسباب بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[1] .

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[2] .

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »[3] .

---

(١) البقرة – آية : ١٢٩ .

(٢) آل عمران – آية : ١٦٤ .

(٣) البقرة – آية : ١٥١ .

مصدره :

« وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ »[١] .

« حمٓ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[٢] .

« حمٓ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ »[٣] .

« آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »[٤] .

« حمٓ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ »[٥]

أوصافه :

مبين

« آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »[٦] .

« آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ »[٧] .

« طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ »[٨] .

هو نور :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي

---

(١) النمل – آية : ٦ .

(٢) غافر – آية : ١ ، ٢ .

(٣) الجاثية – آية : ١ ، ٢ .

(٤) هود – آية : ١ .

(٥) الدخان – آية : ١ – ٣ .

(٦) يوسف – آية : ١ .

(٧) الحجر – آية : ١ .

(٨) النمل – آية : ١ .

التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمنكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ، وَالْأَغْلال الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَعَزَّروهُ وَنَصَروهُ ، واتَّبَعوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [١] .

« يَأيها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِن رَبِّكُمْ ، وأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نوراً مُبيناً » [٢] .

« وكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتابُ وَلا الإِيمان ، ولَكِنْ جَعلناهُ نُوراً نَهدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا ، وإِنكَ لَتَهْدِي إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » [٣] .

حكيم :

« الَر تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْحكِيمِ » [٤] .

حق :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعبادِهِ لَخَبيرٌ بَصِيرٌ » [٥] .

مبارك :

« كِتابٌ أَنزلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِه ، ولِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبابِ » [٦] .

---

(١) الأعراف – آية : ١٥٧ .
(٢) النساء – آية : ١٧٤ .
(٣) الشورى – آية : ٥٢ .
(٤) يونس – آية : ١ .
(٥) فاطر – آية : ٣١ .
(٦) ص – آية : ٢٩ .

« وَهَذا كتابٌ أنزلْناهُ مُبارَكٌ فاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ »[١] .

« وهَذا كتابٌ أنْزلناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَها ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ »[٢] .

معجز :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، ولَوْ كانَ بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً »[٣] .

عظيم :

« وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »[٤] .

علىٌّ حكيم :

« وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ »[٥] .

عزيز :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ »[٦] .

---

(١) الأنعام – آية : ١٥٥ .
(٢) الأنعام – آية : ٩٢ .
(٣) الإسراء – آية : ٨٨ .
(٤) الحجر – آية : ٨٧ .
(٥) الزخرف – آية : ٤ .
(٦) فصلت – آية : ٤١ .

مفصل على علم :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١) .

« كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٢) .

أحسن القصص :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » (٣) .

لا عوج له :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا » (٤) .

يهدى إلى الحق :

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ ، فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (٥) .

---

(١) الأعراف – آية : ٥٢ .

(٢) فصلت – آية : ٣ .

(٣) يوسف – آية : ٣ .

(٤) الكهف – آية : ١ .

(٥) الأحقاف – آية : ٢٩ – ٣٢ .

عربى الأسلوب ، عالى الدلالة :

« حمٓ وَالْكِتابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »[١] ،
« قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »[٢] .

لا ريب فيه :

« الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »[٣] .

يخرج من الظلمات إلى النور :

« الٓرٓ كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »[٤] .

بشرى المسلمين

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هٰؤُلاءِ ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ »[٥] .

رحمة للمؤمنين :

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[٦] .

---

(١) الزخرف - : ١ - ٣ .
(٢) الزمر - آية : ٢٨ .
(٣) البقرة - آية : ١ ، ٢ .
(٤) إبراهيم - آية : ١ .
(٥) النحل - آية : ٨٩ .
(٦) النحل - آية : ٦٤ .

تلاوته :

« إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ » [١] .

نذير :

« تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » [٢] .

أُنْزِلَ بالحق :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » [٣] .

أحسن الحديث :

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ » [٤]

نذير لكل من بلغه :

« قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ

---

(١) فاطر – آية : ٢٩ .
(٢) الفرقان – آية : ١ .
(٣) الزمر – آية : ٤١ .
(٤) الزمر – آية : ٢٣ .

هـذا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »[١] .

تذكرة :

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيد »[٢] .

مصدقاً لما بين يديه :

« نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ والْإِنْجِيلَ »[٣] .

أثره وتأثيره :

« لَوْ أَنْزَلْنا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[٤] .

« وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ، أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ، أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ، وَلَا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ »[٥] .

---

(١) الأنعام – آية : ١٩ .
(٢) ق – آية : ٤٥ .
(٣) آل عمران – آية : ٣ .
(٤) الحشر – آية : ٢١ .
(٥) الرعد – آية : ٣١ .

« وَإذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً »[١] .

من آداب التلاوة :

« فَإذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ »[٢] .

« وَإذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[٣] .

« وقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلا »[٤] .

« أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً »[٥] .

حكم :

« أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلا ، وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »[٦] .

حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على هجره :

« وَقَالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً »[٧] .

والآن نذكر بعض الطرائف التي رويت متعلقة ببعض آيات القرآن :

---

(١) الإسراء – آية : ٤٥ .
(٢) النحل – آية : ٩٨ .
(٣) الأعراف – آية : ٢٠٤ .
(٤) الإسراء – آية : ١٠٦ .
(٥) النساء – آية : ٨٢ .
(٦) الأنعام – آية : ١١٤ .
(٧) الفرقان – آية : ٣٠ .

عن الشعبى قال : لقى عمر بن الخطاب ركباً فى سفر ، فيهم بن مسعود ، فأمر رجلا يناديهم : من أين القوم ؟ قالوا : أقبلنا من الفج العميق [(١)] ، نريد البيت العتيق [(٢)] .

فقال عمر : إن فيهم لعالماً ، وأمر رجلا أن يناديهم : أى القرآن أعظم ؟ فأجابه عبد الله :

« اللهُ لا إلـهَ إلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَافِى السَّمواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ » [(٣)]

قال : نادهم ، أى القرآن أحكم ؟

فقال ابن مسعود :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتاءِ ذِى الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكرِ وَالْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تذكَّرُونَ » [(٤)] .

قال : نادهم ، أى القرآن أجمع ؟

فقال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

(٢) والبيت العتيق يشير إلى قوله تعالى : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

(٣) سورة البقرة – آية : ٢٥٥ .

(٤) النحل – آية : ٩٠ .

(٥) الزلزلة – آية : ٧ ، ٨ .

فقال : نادهم : أى القرآن أحزن ؟

فقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً » (١) .

فقال : نادهم ، أى القرآن أرجى ؟

فقال : « قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمِ » (٢) .

فقال : أفيكم ابن مسعود ؟ قالوا : نعم (٣) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره بنحوه .

وأخرج عبد الرزاق أيضاً ، عن ابن مسعود قال : أعدل آية فى القرآن :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (٤) .

وأحكم آية :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » .

وأخرج الحاكم عنه قال : إن أجمع آية فى القرآن للخير والشر :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون » .

وأخرج عنه قال : ما فى القرآن آية أعظم فرجاً من آية فى سورة الغرف : (أى سورة الزمر) :

---

(١) النساء – آية : ١٢٢ .

(٢) الزمر – آية : ٥٣ .

(٣) انظر الإتقان للسيوطى .

(٤) النحل – آية : ٩٠ .

« قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

وما فى القرآن آية ، أكثر تفويضاً من آية فى سورة النساء القصرى :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا »(١) .

وأخرج أبو ذر الهروى فى فضائل القرآن من طريق يحيى بن يعمر ، عن ابن مسعود ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أعظم آية فى القرآن » :

« اللهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ ما فِى السَّمواتِ ومَا فِى الْأَرْضِ من ذا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ، إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

وأعدل آية فى القرآن :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وأخوف آية فى القرآن : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وأرجى آية فى القرآن : « قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

---

(١) الطلاق - آية : ٣ .

شهر رمضان والقرآن :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

وقراءة القرآن فى شهر رمضان من أسمى القربات ، وهى تتناسب مع شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، والله سبحانه وتعالى يقول عن القرآن :

« إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ »[1] . قال :

هو القرآن ، ليس كلهم رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث — فيما رواه البخارى — :

يؤم الناس أقرؤهم لكتاب الله .

وما ذاك إلا أنه أعلم بأحكام الله : فالعالم بالقرآن عالم بجملة الشريعة .

وعن عائشة رضوان الله عليها ، أن من قرأ القرآن فليس فوقه أحد .

وعن عبد الله قال :

« إذا أردتم العلم فثوروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين »[2] .

وعن عبد الله بن عمر قال : « من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً ، وقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه » .

وفى رواية عنه : « من قرأ القرآن ، فقد اضطربت النبوة بين جنبيه . وما ذاك إلا أنه جامع لمعانى النبوة » اهـ .

والأحاديث فى القرآن وفضله كثيرة .

---

(١) الآية : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » . آل عمران : ١٩٣ .

(٢) فثوروا القرآن : أى تدبروه وافهموا معناه العميق .

عن أبي أمامة – فيما رواه مسلم – قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيابتان ، أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة »(١)؛

وأخرج الدارمي في سننه ، عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم .

إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات . أما إني لا أقول : ألم ، ولكن ألف ولام وميم .

وأخرج الدارمي أيضاً في سننه عن الحارث قال :

دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث ، فدخلت على عليّ فقلت : ألا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد فقال : قد فعلوها ؟ قلت : نعم . قال : أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن » قلت : وما المخرج منها ؟ قال :

كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو

(١) رواه مسلم .

الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً » هو الذى من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

فضله[١] .

قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى : « من شغله قراءة القرآن ، عن دعائى ومسألتى أعطيته أفضل ثواب الشاكرين »[٢]

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ، ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس :

رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ، ورجل أم به قوماً وهم به راضون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أهل القرآن أهل الله وخاصته »[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، فقيل يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته »[٤] .

قال أبو أمامة الباهلى : اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة : فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن .

---

(١) من المراجع التى رجعت إليها ابتداء من الحديث عن فضل القرآن إلى نهاية هذا الفصل : كتاب الإتقان للسيوطى ، وكتاب الإحياء للإمام الغزالى ، وكتاب محاسن التأويل للقاسمى ، وكتاب الترغيب والترهيب للمنذرى ، وكتابنا : العبادة .

(٢) رواه الترمذى وقال حسن غريب .

(٣) روته كتب السنة بإسناد حسن .

(٤) رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم .

وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين .

وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ويعجبه ، فهو يحب الله سبحانه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمرو بن العاص : كل آية فى القرآن درجة فى الجنة ، ومصباح فى بيوتكم .

وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد . قال :

قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغى لحامل القرآن ألا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم ، فينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه ، وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن .

ويروى أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

اقرأ على القرآن فقرأ عليه : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » . فقال له : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمورق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر[١] .

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال الوليد بن المغيرة بدل =

ولقد تحدث الإمام السيوطى فى كتاب الإتقان ، فى : النوع الخامس والسبعون فى خواص القرآن .

فقال :

أخرج ابن ماجه وغيره من حديث ابن مسعود : « عليكم بالشفاءين القرآن والعسل » .

وأخرج أيضاً من حديث على : « خير الدواء القرآن » .

وأخرج أبو عبيد عن طلحة بن مصرف ، قال : « كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة » .

وأخرج البخارى من حديثه أيضاً قال : « كنا فى مسير لنا ، فنزلنا فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم[١] ، فهل معكم راق ؟ فقام معها رجل ، فرقاه بأم القرآن فبرئ ، فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وما كان يدريه أنها رقية ! » .

وأخرج مسلم من حديث أبى هريرة : « أن البيت الذى تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان » .

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند بسند حسن عن أبىّ بن كعب قال :

كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء أعرابى فقال : يا نبى الله ، إن لى أخاً وبه وجع ، قال : وما وجعه ؟ قال : به لمم ، قال : فأتنى به ، فوضعه بين يديه ، فعوذه النبى صلى الله عليه وسلم ، بفاتحة الكتاب ، وأربع آيات من أول سورة البقرة ، وهاتين الآيتين ، « وإلهكم

= خالد بن عقبة وكذا ذكره ابن إسحاق فى السيرة بنحوه .

(١) أى مريض .

إلهٌ واحد» وآية الكرسي ، وثلاث آيات من آخر سورة البقرة ، وآية من آل عمران :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١).

وآية من الأعراف : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(٢).

وآخر سورة المؤمنين :

« فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لا إِلـٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ »(٣).

وَآية من سورة الجن : « وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا »(٤)، وعشر آيات من أول الصافات ، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وقل هو الله أحد والمعوذتين ، فقام الرجل كأنه لم يشك قط .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة فى قصة الصدقة : « إن الجنى قال له : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسى ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما إنه صدقه ، وهو كذوب » .

وأخرج الترمذى والحاكم عن سعد بن أبى وقاص : « دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت : « لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع بها رجل مسلم فى شىء إلا استجاب الله له .

---

(١) آل عمران – آية : ١٨ .

(٢) الأعراف – آية : ٥٤ .

(٣) المؤمنون – آية : ١١٦ .

(٤) الجن – آية : ٣ .

وأخرج الترمذى من حديث أبى هريرة : « من قرأ الدخان كلها ، وأول غافر إلى « إليه المصير » . وآية الكرسى حين يمسى حفظ بها حتى يصبح ، ومن قرأها حين يصبح حفظ بها حتى يمسى » رواه الدارمى بلفظ « لم ير شيئاً يكرهه » .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : إذا وجدت فى نفسك شيئاً يعنى الوسوسة فقل : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ والظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(1) .

وقال الربيع : سألت الشافعى عن الرقية فقال : لا بأس أن يرقى بكتاب الله ، وما يعرف من ذكر الله .

وقال ابن بطال : فى المعوذات سر ليس فى غيرها من القرآن ، لما اشتملت عليه من جوامع الدعاء التى تعم أكثر المكروهات ، من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك ، فلهذا كان صلى الله عليه وسلم يكتفى بها .

وقال ابن القيم فى حديث الرقية بالفاتحة : « إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع ، فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التى لم ينزل فى القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ، لتضمنها جميع ما فى الكتاب ، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها وإثبات المعاد ، وذكر التوحيد والافتقار إلى الرب فى طلب الإعانة به والهداية منه ، وذكر أفضل الدعاء ، وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه ، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به ومغضوب عليه لعدوله عن الحق بعد معرفته ، وضال لعدم معرفته له ، ومع ما تضمنته من

(١) سورة الحديد – آية : ٣ .

إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب ، والرد على جميع أهل البدع .

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يستشفى بها من كل داء » أهـ .

ومع هذه الفوائد المحققة للقرآن وفى القرآن ، فإنه يجب ألا ننسى أنه نزل أولا وبالذات للهداية ، ولإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولهذه المهام الكبرى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الكثيرة التى وصفه بها والتى أتينا بها من أجل التنبيه على أوصافه وغاياته ، وما أنزل من أجله ، ولهذا كان لابد من :

*** التدبر فى القرآن :**

عن أبى ذر قال : « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة ، فقام بآية يرددها وهى « إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُك ، وإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم » .

وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَات)[1] .

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية (وامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُون) .

التفهم ، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام ، وذكر أحوال المكذبين لهم ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار[2] .

---

(١) الآية : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » . الجاثية : ٢١ .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

أما صفات الله عز وجل ، فكقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[1] فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات ليكشف له أسرارها ، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين ، وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله : (ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً فى كتابه) . فلتكن حريصاً على طلب ذلك الفهم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين ، فليثـور[2] القرآن ، وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته ، إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله[3] تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل ، وجلاله ، إذ الفعل يدل على الفاعل ، فتدل عظمته على عظمته ، فينبغى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق ، رآه فى كل شيء ، إذ كل شيء فهو منه وإليه ، وبه وله ، فهو الكل على التحقيق ، ومن لا يراه فى كل ما يراه ، فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لأنه سيبطل فى ثانى الحال ، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هـو ، إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته ،

---

(١) سورة الحشر آية : ٢٣ .

(٢) ثور القرآن ، أى يبحث عن علمه .

(٣) انظر كتاب : إحياء علوم الدين .

فيكون له بطريق التبعية ثبات ، وبطريق الاستقلال بطلان محض .

وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة [١] . ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عز وجل :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » [٢] . « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ » . « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ » . « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ » .

فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى ، بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب ، وكيفية تَشكُّل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة ، كما قال تعالى :

« أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » . [٣] فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب ، فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء ، عليهم السلام : فإذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئاً ، وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل ، وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم ، فليكن فهمه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الواقعة – آية : ٦٣ .

(٣) يس – آية : ٧٧ .

منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته ، وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه ، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل ، فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية ، وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له ، وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه ، وليقدر القارئ أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن ، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدر أنه المنهى والمأمور ، وإن سمع وعدًا أو وعيدًا فكمثل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به ، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ، فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، ولذلك قال تعالى : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »[1] فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء ، وصبرهم على الإيذاء ، وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى ، وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة ، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ، ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب ، فقال تعالى : « واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ »[2] .

وقال عز وجل : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[3] . « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ »[4] .

---

(١) هود آية : ١٢٠ .

(٢) « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » البقرة : ٢٣١ .

(٣) « ولعلهم يتفكرون » النحل – آية : ٤٤ .

(٤) سورة محمد – آية : ٣ وأولها : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا =

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »[١] . « هَذَا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[٢] . « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »[٣] .

وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد ، فهذا القارئ الواحد مقصود ، فما له ولسائر الناس ؟ .

فليقدر أنه المقصود بقوله تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ »[٤] .

قال محمد بن كعب القرظى :

من بلغه القرآن ، فكأنما كلمه الله ، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله ، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه ، الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه ، ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، نتدبرها فى الصلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات ، وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن ؟ .

إن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض .

= اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

(١) الآية : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » الزمر ٥٥ .

(٢) سورة الجاثية – آية : ٢٠ .

(٣) آل عمران – آية : ١٣٨ .

(٤) الآية : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » الأنعام : ١٩ .

وقال قتادة :

لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان ، قال الله تعالى :

« هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » [(١)].

ومن آداب التلاوة :

أن يقول فى مبتدأ قراءاته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون . وليقرأ قل أعوذ برب الناس ، وسورة الحمد لله ، وليقل عند فراغه من القراءة ، صدق الله تعالى ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم أنفعنا به ، وبارك لنا فيه ، الحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحى القيوم . وفى أثناء القراءة ، إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ، اللهم ارحمنا .

قال حذيفة :

« صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدأ سورة البقرة ، فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية عذاب إلا استعاذ ، ولا بآية تنزيه إلا سبح » .

وعن الليث بن سعد ، عن أبى مليكة عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة عن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً [(٢)] .

---

(١) أول الآية : «ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . . .» الآية من سورة الإسراء : ٨٢ .

(٢) رواه الترمذى ، وأبو داود ، والنسائى .

وعن ابن جريج ، عن أبي مليكة ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقطع قراءته يقول : « الحمد لله رب العالمين » ثم يقف ثم يقول « الرحمن الرحيم » ثم يقف [١] .

وعن قتادة ، قال : سئل أنس : كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت مداً مداً ، ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد بسم الله ، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم »[٢] .

وعن حذيفة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل العشق ، ولحون أهل الكتابين ، وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ، ترجيع الغناء والنواح ، ولا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم »[٣] .

وعن طاووس مرسلا قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم :
أي الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة ؟ قال :
« من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله »[٤] .

ومن آداب التلاوة :

يقول الله سبحانه وتعالى :
« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .
ويقول سبحانه في تعريف المؤمنين :
« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ

---

(١) رواه الترمذي . (٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، ورزين في كتابه .
(٤) رواه الدارمي .

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » .

والأمر بالاستماع والإنصات اللذين تفيض بسببهما رحمة الله على السامع المنصت إنما كان من أجل التدبر للمعانى الكريمة التى انطوت عليها الآيات القرآنية ، ومن أجل الاتعاظ بها والتزام الحدود التى سنتها والقواعد التى أتت بها ، وهى لكل ذلك إذا تليت على المؤمنين زادتهم إيماناً .

وكلام الله سبحانه وتعالى له فعل السحر فى خشية الله عند المؤمنين يقول سبحانه :

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ »(١) .

والخشوع عند تلاوة القرآن ، والتزام السكينة والصمت عند تلاوته إنما يكون من قلب امتلأ بالإيمان ومحبة الله سبحانه وتعالى ، والخوف منه ، والرجاء فيه .

والله سبحانه وتعالى يبين أن الخشية من ثمار تلاوة القرآن أو سماعه ، بل إنه سبحانه يخبر أنه لو نزل القرآن على جبل لتمثل فيه الخشوع ، بل يصل الخشوع به إلى درجة التصدع ، يقول سبحانه :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »(٢) .

فالواجب إذن التزام التدبر والاتعاظ والتزام الهدوء والصمت ولا بأس من أن ينطق الإنسان مختارًا أو مضطرًا عندما يمتلئ قلبه بمعنى من المعانى

---

(١) الزمر – آية : ٢٣ .

(٢) سورة الحشر – آية : ٢١ .

فى سموه وجلاله ، أو بكيفية من كيفيات الأداء التى تتناسق مع المعنى رهبة أو رغبة ، ورحمة ورقة أو شدة وقوة ، لا بأس عند ذلك من أن يقول المستمع متفاعلا مع الظروف سبحان الله ، أو جل جلال الله ، أو سبحان من هذا كلامه ، أو أستغفر الله ، أو تبتُ إلى الله ، أو اللهم قنى عذابك ، أو اللهم أفض علىّ من رحمتك ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، ذلك هو موقف المؤمنين عند تلاوة القرآن أو عند سماعه .

الفصل الخامس

اقرأ باسم ربك الذى خلق

كيف ؟

(١)

إذا أراد إنسان أن يدخل فى رحاب :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

إذا أراد إنسان أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فيحاول أن يقترب ما استطاع من :

« إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ » .

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى « الإسلام » .

فكيف يبدأ ؟

ما هى الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟

إنه يبدأ بالدخول فى النظام القرآنى ، والدخول فى النظام القرآنى ، معناه العزم المصمم على التخلى عما ليس بقرآن ، وهذا ما يسمى فى العرف الإسلامى أو النظام القرآنى : « التوبة » .

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة وحث عليها وحبب فيها وأوجبها فى بعض الأحيان . .

والواقع أنها اللبنة الأولى فى الطريق إلى الله . وهى اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه تفضلا منه ورحمة . يقول سبحانه ، فى حديث قدسى ، وفى أسلوب كله رأفة :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى صورة من تجلى الرحمة ، وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (١) .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة فيقول سبحانه وتعالى :

« وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ »(٢) .

أى ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له ، ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ » (٣) .

والله سبحانه وتعالى فى هذا يوجه الذين صدقوا فى توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق

---

(١) ٥٣ – سورة الزمر .

(٢) ٥٤ – سورة الزمر .

(٣) ٥٥ – سورة الزمر .

ستتبع كلازم من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق . والله سبحانه وتعالى
سد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيما بعد مهدداً تهديداً يقصد به
ث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم .
ول سبحانه :

« أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ
سَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ
ى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله فإن الرد يأتيه من رب العزة ،
اسما قويًّا :

« بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ »[2] .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافرين يوم القيامة فيقول :

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى
هَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » .

ويختم سبحانه هذه الآيات التى ترسم طريق المؤمن بما يبشر من اتبع
طريق وسلك سواء السبيل فيقول سبحانه :

« وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

والآن ، قد وضح الطريق فهو أولا : التوبة ، وثانياً : اتباع أحسن
أنزل الله . .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم – متابعة للأوضاع الإسلامية –
.أون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح : لقد كانوا يبدأون أول

---

(١) ٥٦ – ٥٧ – ٥٨ – سورة الزمر .

(٢) ٥٩ – سورة الزمر .

شهر رمضان بالتوبة ، ويبدأون الحج بالتوبة . ولعل الكثير من ذوى البصائ
قد لاحظوا أن الرحلة المباركة ، رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر
وشق الصدر بالنسبة لنا : إنما هو التوبة الخالصة النصوح . لأن التو
تطهر وطهر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقا
عن صدر الإنسان ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم : أى يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجب ما قبلها ، أى تزي
وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط لا بد من توافرها حتى تهيئ الإنسا
لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

يقول الإمام النووى من كتاب رياض الصالحين :

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فل
ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة . هذه الثلاثة وأ
يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان
حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب .

فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

وقد تضافرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأئمة على وجوب التوبة . .

قال الله تعالى :

« وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

وقال تعالى :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » .

وقال تعالى :

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً » .

هـذا فيما يتعلق بالتوبة . وبقى الحديث فيما يتعلق باتبـاع أحسن ما أنزل الله .

(٢)

إن اتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الداخلين فى الإسلام . أعنى مواد البيعة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه . وكان عبادة شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وحوله جماعة من أصحابه :

« بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلـوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف .

فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء الله عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد صلت معه القبلتين وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجـار ، قالت :

جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، قال : « ولا تغششن أزواجكن » .

قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن :

ارجعى فسلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ما غش أزواجنا ؟ فسألته ، فقال :

« تأخذ ماله فتحابى به غيره » .

ولقد وردت بيعة النساء فى القرآن الكريم ، يقول تعالى :

« يَأَيُّها النَّبِيُّ إذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبايِعْنَكَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَسْرِقْنَ ، وَلاَ يَزْنِينَ ، وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ، وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِملاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِش

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وإذا أردنا إجمالا للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وهذه الآية الكريمة ألف فيها الإمام العز بن عبد السلام – كما يقول صاحب كتاب النصيحة العلوية – كتاباً بين فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية ، وبين ذلك فى سائر الأبواب الفقهية وسمى ذلك « كتاب الشجرة » .

هذا والقصص التالية تلقى بعض الأضواء على هذا الموضوع ؛ موضوع اتباع أحسن ما أنزل الله .

لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم بن صيفى ابنه : « حبيشاً » فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم ، وقال لهم – فيما قال :

إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف « عرف » ذوو

الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ، ترك ما ينهى عنه .

ثم يقول هذه الكلمات الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

وسبيل الله كما رآه أكثم :

توحيد الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والأخذ بمحاسن الأخلاق .

وكلمة : الأخذ بمحاسن الأخلاق كلمة جميلة جمعت فاستغرقت ، وشملت فعمت .

أما كلمته الرائعة حقًّا ، السامية حقًّا ، العجيبة فى صدقها وإيجازها وفصاحتها ، فهى قوله :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان فى أخلاق الناس حسناً » .

ولما هاجر المسلمون هجرتهم الأولى فى سبيل الله إلى أرض الحبشة لم يكتف القرشيون منهم بخروجهم وهجرتهم بدينهم تاركين الأهل والوطن والمال . ولكنهم أرسلوا وفداً إلى النجاشى فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو ابن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص : إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً « أى أبصربهم » وأعلم بما عابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم رأى أن من الحكمة : ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم :

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذى كلمه : جعفر بن أبى طالب ، قال له :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف : فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا : نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان . .

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

« وعدد عليه أمور الإسلام » .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . . فعدا علينا قومنا : فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك . .

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم ، بكى النجاشى ثم قال :

إن هذا والذى جاء به عيسى : ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما :

« انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم النجاشي ، فور سماعه ، المبادئ الإسلامية .

« أن هذه المبادئ حق ، وأنها آيات بينات لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله عليه وسلامه : إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام » .

وسبيل الله كما صوره سيدنا جعفر : توحيد الله وعبادته وحده ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

وإقامة الصلاة وأداء الزكاة ، والصيام . .

والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . .

وكل ذلك اتباع لأحسن ما أنزل الله .

(٣)

أول عقد من عقود البيعة

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله . .

وحينما يسمع الناس الحديث عن « عدم الإشراك بالله » يتجه ذهنهم – فى الأغلب الأعم منهم – إلى نفى تعدد الآلهة ، إن الذهن يتجه إلى أن هذه العقيدة التى كانت عند اليونان فى عهودهم القديمة من تعدد الآلهة وعند العرب فى جاهليتهم من عبادة الأصنام . . . باطلة . .

لقد جعل اليونان إلهاً لكل ظاهرة من ظواهـر الكون الكبرى ، وكذلك فعل قدماء المصريين فى عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب .

بل إن الإنسانية وقد بدأت بالتوحيد الخالص على يد آدم عليه السلام قد انحرفت سريعاً إلى التعدد فأخذت الأنبيـاء والرسل تنزل تباعاً مبشرة بالتوحيد مجاهدة فى سبيل منع التعدد وفى سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً كثرة تتناسب والانحراف المتوالى من الإنسانية منذ ظهورها ، لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبى يدعو أمته إلى مثل ما دعا محمد صلى الله عليه وسلم الإنسانية جمعاء :

« أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ إنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ »[1] .

وسورة يونس وسورة هود والكثير من سور القرآن على وجه العموم تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد : يقول سبحانه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلىَ قَوْمِهِ إنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أنْ لا تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ ، إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ »[2] .

ويقول سبحانه :

« وَإلىَ عادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، إنْ أَنْتُمْ إلاَّ مُفْتَرُونَ »[3] .

---

(١) هود – ٢ .

(٢) هود : ٢٥ – ٢٦ .

(٣) هود : ٥٠ .

ويقول سبحانه :

« وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ »[1] .

وهكذا نرى كل نبي يدعو إلى عدم الشرك بالله أنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة ، وإلى الوحدانية فإن هذا الاتجاه طبيعي ، وهو اتجاه حق . .

وهذا النوع من الشرك هو الذى يقول الله سبحانه وتعالى عنه :

« إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاءُ » .

وهو الذى ينفيه الله منطقياً بقوله :

« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

وبقوله :

« مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كان مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ، إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا ، وهو وإن كان من معانيه عدم التعدد فإن دائرته تتسع فتشمل أموراً أخرى .

يقول أبو سعيد الخراز :

« فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله عز وجل بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريد بها إلا الله وحده ،

---

(١) هود : ٦١ .

قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره » .

وهـذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز رضى الله عنه هو بعض معانى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ » .

إن « اقرأ باسم ربك الذى خلق » توحيد خالص ، والتوحيد الخالص لا رياء فيه والله سبحانه وتعالى ، يقول : « ألاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » .

وإن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى – فيما تعنى من معان – تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل :

« فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

ولقد تحدث القرآن عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يكاد يحصى من النصوص والأحاديث . والتوحيد الخالص والشرك يبدآن بالنية : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً أن قيمة العمل فى الخير والثواب والقبول تتبع النية :

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنية » . وفى رواية بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى .

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد ، وإذا هفا الإنسان هفوة فعليه أن يتدارك الأمر بالتوبة وصدق النية من جديد .

وصدق النية شرط من الشروط التي يترتب عليها قبول العمل .

عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا خير شريك ، فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي ، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم ، وليس لله فيها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شيء » . رواه البزار بإسناد لا بأس به ، والبيهقي .

وعن أبي أمامة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا شيء له » فأعادها ثلاث مرات ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى (به) وجهه .

رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى فإن في إخلاصها لله صدق السريرة وطهارة القلب وفيها انتفاء التملق والزلفى وبها تنتفي الزلة وينتفي الزيف والرياء ومن أجل ذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرياء تحذيراً شديداً ، وحث على الصدق والإخلاص في صور شتى .

والحديث التالي قد روى بصورة متعددة ، وروى معناه بصور كثيرة ، ورواه ثقات المحدثين :

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به ،

فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل،ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » . رواه مسلم والنسائى ، ورواه الترمذى وحسنه ، وابن حبان فى صحيحه وكلاهما بلفظ واحد .

ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيداً فريداً يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق فى وجه الباطل ، ويدعو إلى الله فى وسط كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام فى بيئة تعبد الأصنام ، ودعوته صلوات الله عليه وسلامه ، ورسالته إلى العالم أجمع : إنما كان أساسها التوحيد ، والإسلام إنما هو دين التوحيد ، وليس للتوحيد معنى إلا الإيمان الصادق اليقينى بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه ، وإنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشىء ما نفعوه إلا بشىء قد قدره الله له ، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على أن يضروا أى إنسان بشىء ، ما ضروه إلا بشىء قد قدره الله

وإذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك لا محالة ، فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف فى قلب المؤمن .

التوحيد والشجاعة الأدبية :

والتوحيد إذن هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل أو لكل الفضائل .

وتثبيتاً للشجاعة الأدبية ، وحفاظاً على استمرارها بيَّن الله تعالى الأسباب التى تجعل الشخص يجبن عن قول الحق ويتراجع فى إعلان الصواب ، وترجع هذه الأسباب إلى أمرين :

الأمر الأول : هو ما يمكن أن يعبر عنه بهم الرزق أو خوف الفقر ، وقد بين الله تعالى ، أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك فسوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناله .

« وَفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ ومَا تُوعَدُونَ ، فَوَرَبِّ السَّماءِ والْأَرْضِ إنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِى كتابٍ مُبِينٍ » .

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ويشجع على الأخذ بالأسباب وإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، « ولأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يتكفف الناس ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

ومع ذلك فإن الرزق فى يد الله ، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو سبحانه القوى العزيز القهار .

أما الأمر الثانى الذى يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية ، فإنه خوف الموت ، وهو خوف لا موضع له ، فالله قد حدد الآجال ، ولو كان الناس فى بروج مشيدة لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم التى يقتلون فيها : « فإذا جَاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » .

فالآجال والأرزاق بيد الله ، وكل فكرة أو رأى أو همس خافت فى النفس يخالف ذلك ، فإنما هو شرك .

وانظر إلى هذه الصورة الكريمة للشجاعة الأدبية التى ربتها التعاليم القرآنية ، وهى أن يقوم رجل بين يدى سليمان بن عبد الملك فيقول له سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . .

وإن من الصور الكريمة للشجاعة الأدبية ، أن يتقبل الإنسان الحق ، وكما تكون الشجاعة الأدبية ، قول الحق ، تكون قبول الحق .

وإذا صدقت النية كان الإخلاص ، وكانت الثقة فى الله ، وكان الاتجاه الدائم نحوه . فكانت العزة به .

وللإخلاص أهميته الكبرى فى الإسلام ، حتى لقد نادى رجل مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : ما الإيمان ؟

قال : الإخلاص . .

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بعث إلى اليمن – : يا رسول الله أوصني ، قال صلى الله عليه وسلم : « أخلص دينك يكفك العمل القليل » رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد :

وإذا ما صدقت النية وتوافر الإخلاص تقبل الله العمل ومنح الله صاحبه الثواب ، وكان عمله وسيلة له فى النجاة فى الدنيا والآخرة .

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى أواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل ، فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى[١] بى طلب شجر يوماً فلم أرح[٢] عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر – زاد الرواة « والصبية يتضاغون عند قدمى » – فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها . .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : قال الآخر : اللهم كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ فأردتها عن نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت[٣] بها سنة من السنين ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى

---

(١) نأى بى : بعد بى .

(٢) لم أرح عليهما : يريد لم أرجع إليهما .

(٣) ألمت : نزلت . نزلت بها سنة من السنين الجدباء .

بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت[١] من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم « إنى » استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال لى : يا عبد الله أد إلىّ أجرى ؟ فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى . فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذه كله ، فساقه كله ، فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون .

وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما ثلاثة نفر[٢] ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر ، فآووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره إلى أن اشتريت منه بقراً ، وأنه أتانى يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساحت عنهم

---

(١) تحرجت : خفت أن أرتكب الحرج ، وهو الإثم .

(٢) النفر : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة .

الصخرة . « فذكر الحديث قريباً من الأول » رواه البخارى ومسلم والنسائى » .

وقوله : « وكنت لا أغبق قبلهما أهلا أو مالا » ، الغبوق بفتح الغين المعجمة : هو الذى يشرب بالعشى .

ومعناه كنت لا أقدم عليهما فى شرب اللبن أهلا ولا غيرهم .

يتضاغون بالضاد والغين المعجمتين : أى يصيحون [١] من الجوع .

السنة : العام المقحط الذى لم تنبت الأرض فيه شيئاً ، سواء نزل غيث أم لم ينزل .

تفض الخاتم : هو بتشديد الضاد المعجمة ، وهو كناية عن الوطء .

الفرق - بفتح الفاء والراء : مكيال معروف .

فانساحت : هو بالسين والحاء المهملتين ، أى تنحت الصخرة وزالت عن فم الغار [٢] .

وعن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » . رواه ابن ماجه والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين والعمل الذى يتقبله الله ويشترط النية الصادقة فيه إنما هو العمل الذى يكون فى الإطار الربانى ، إنه العمل الذى يقوم به الإنسان تلبية لتربية المربى تلبية واعية شاعرة بأنها استجابة للأمر الإلهى فيما يتعلق بالإيجاب ، أو للنهى الإلهى فيما يتعلق بالسلب أى أنها تحقق ، فى جانبى

---

(١) فى نسخة « يضجون » بالضاد المعجمة والجيم ، والمعنى قريب : عن كتاب الترغيب والترهيب .

(٢) انظر فى ذلك كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى .

لسلب والإيجاب من العمل ، لاقرأ باسم ربك الذى خلق .

وهذا العمل ، فى اليسير منه والعظيم إنما هو ما أتى به الوحى فى القرآن وما فصلته السنة النبوية الكريمة : العملية منها والنظرية فإذا ما خرج الأمر عن هذا الإطار فى النية أو فى الفعل فقد خرج عن أن يكون « قراءة باسم ربك » والبيعة إنما هى بيعة للرسول صلى الله عليه وسلم .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ » .

ويقول : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ » .

والقرآن الكريم إذن ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمله ، كل ذلك يمثل وحدة واحدة فى الإسلام .

ومن مواد البيعة التى صيغت فى أسلوب رقيق وفى إيجاز جميل قوله تعالى :

« ولا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ » ..

والمعروف هو الخير الذى انطوى فى ثنايا التعاليم الإلـهية ، وهو يتضمن كل خير ، وبتحقيقه تتحقق الفضيلة فى أجمل صورها .

(٤)

والآن يأتى السؤال : إذا صدقت النية واتبع الإنسان أحسن ما أنزل إليه من ربه فى العمل ، فما هو السبيل إلى اتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ؟

ما هى القراءة باسم ربك فى القول ؟

إن الله سبحانه وتعالى بين لنا الإحسان فى القول ، كما بين لنا الإحسان فى العمل . يقول سبحانه فى الجانبين :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ويقول سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِى الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ولقد ضرب الله لنا المثل فى الكلمة الطيبة ، وفى الكلمة الخبيثة فقال سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثَابِتٌ وَفَرْعُها فِى السَّماءِ ، تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرارٍ . يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِى الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » [1] .

واتباع أحسن ما أنزل الله فى القول ، إنما هو الدعوة إلى الله ، بنص الآية الكريمة ، وإعلان الإسلام :

« وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ومن ذلك الذكر ، والدعاء .

---

(١) سورة إبراهيم – الآيات ٢٤ – ٢٧ .

الفصل السادس

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ

وفى الذكر

إن شهر رمضان موسم من أنسب المواسم – إن لم يكن أنسبها – للذكر ، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى من حكمة فرضه : التقوى كما قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وختم الله سبحانه آيات الصيام بقوله :

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .

ولقد ورد الأمر بالتقوى كثيراً فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية الشريفة.

يقول تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ » .

ولقد سئل الصحابى الجليل أبى بن كعب عن التقوى ، فقال للسائل :

أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟

قال : بلى

قال : فما عملت ؟

قال : شمرت واجتهدت .

قال : فذلك التقوى .

أى أن التقوى تشمير واجتهاد فى الطاعات ، وحذر وتحرر واتقاء

لكل ما لا يرضى الله ورسوله ، إنها التزام النهج الربانى فى كل ما يأتى الإنسان وفى كل ما يدع ، إنها التزام ما رسم الله فى القول والصمت ، فى الغضب والرضا ، فى الغنى والفقر ، فى الصحة والمرض ، فى الحركة والسكون .

وقد فرض الله سبحانه وتعالى الصوم ليحقق الإنسان التقوى ويتحقق بها .

فإذا التزم الإنسان التقوى ، فإن الله سبحانه وتعالى يجعل له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل همٍّ مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، يقول سبحانه :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ »[1] .

وإن مما يعين على التقوى وهو فى الوقت نفسه من ثمار التقوى : الذكر .

وقد حثنا الله سبحانه على الذكر فى أسلوب آمر ، يقول سبحانه : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيرا » .

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصال[2] وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » .

وحثنا سبحانه على الذكر فى أسلوب أخاذ ، يقول سبحانه :

« فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ » .

ولقد أخرج الإمام البخارى ، رضى الله عنه ، من حديث قتادة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه قال :

قال الله عز وجل :

« يا ابن آدم ، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى

---

(١) الطلاق : آية ٣ .

(٢) الآصال جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب .

فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » .

ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله :

رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله .

وروى البيهق فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب :

قال الله عز وجل « من شغله ذكرى عن مسألتى » ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة :

« ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل ، إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول الله : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة »[1] .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال الله جل ذكره : « لا يذكرنى عبد فى نفسه إلا ذكرته فى ملأ من ملائكتى ، ولا يذكرنى فى ملأ إلا ذكرته فى الملأ الأعلى »[2] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، ورواه أحمد بنحوه باسناد صحيح ، وزاد فى آخره قال قتادة : « والله أسرع بالمغفرة » .

(٢) رواه الطبرى بإسناد حسن .

وعن عبد الله بن بشير رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأخبرنى بشىء أتشبث به ، قال :

« لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله »[١] .

وعن مالك بن يخامر أن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، قال لهم : إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن قلت :

أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله »[٢] .

وعن أبى موسى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل الذى يذكر الله ، والذى لا يذكر الله ، مثل الحى والميت »[٣] .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال :

كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان ، فقال :

« سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون » .

قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟

قال : « الذاكرون الله كثيراً »[٤] .

وعن أم أنس رضى الله عنها قالت : يا رسول الله أوصنى . قال :

« اهجرى المعاصى ، فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض ،

---

(١) رواه الترمذى واللفظ له وقال : حديث حسن غريب،وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا والصيرافى ، واللفظ له ، والبزار إلا أنه قال : أخبرنى بأفضل الأعمال ، وأقربها إلى الله ، وابن حبان فى صحيحه .

(٣) رواه البخارى ومسلم ، إلا أنه قال : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه » .

(٤) رواه مسلم واللفظ له ، والترمذى . ولفظ : يا رسول الله ، وما المفردون .

فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله ، فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره »[١] .

وفى رواية لهما عن أم أنس :

« واذكرى الله كثيراً ، فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها »[٢] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنة ؟

قال : « حلق الذكر » .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

من جلس مجلساً كثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك - رواه : أبو داود والترمذى .

وأفضل الذكر إنما هو التعبد بتلاوة القرآن ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكثرون من تلاوته تعبدًا به وكانوا يقسمونه أقساماً :

*** لقد كان القرآن لهم حزباً :**

وأول[٣] ما يرجع إليه فى التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد جيد .

(٢) قال الطبرانى : أم أنس هذه يعنى الثانية - ليست أم أنس بن مالك .

(٣) عن إحياء علوم الدين .

« من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه » وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرًا : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن عمرو رضى الله عنهما أن يختم القرآن فى كل سبع ، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرآن فى كل جمعة : كعثمان وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأُبىّ بن كعب رضى الله عنهم . أما من ختم فى الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزاباً ، فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس .

وقيل أحزاب القرآن سبعة . فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثانى خمس سور ، والحزب الثالث سبع سور ، والحزب الرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشرة سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضعون أمام أعينهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألٓمٓ » حرف ، ولكن : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف[1] .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا حسد إلا على اثنين : رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل

---

(١) رواه الترمذى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

وآناء النهار ، ورجل أتاه الله المال فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار [١] .

ولقد وردت الآثار فى الحث على سور وآيات معينة ونورد هنا بعض ذلك ليكون كنموذج فقط . وذلك أننا توسعنا فى الموضوع فى كتابنا « العبادة » ونورده أيضاً ليكون فيه ترغيب فى حفظ بعض السور القرآنية لمن لم يحفظ شيئاً من القرآن .

الفاتحة

أما الفاتحة فإن لها عن كل اسم من أسمائها نصيباً ، إنها الفاتحة بتوفيق الله لكل شيء مغلق ، وهى الفاتحة لكل باب مقفل .

إنها : فاتحة الكتاب ، وفاتحة القرآن ، وهى أم الكتاب ، وأم القرآن .

ومن أسمائها : الكنز ، الواقية ، الكافية ، الأساس ، سورة الحمد ، سورة الشكر ، سورة الدعاء ، سورة المناجاة ، سورة التفويض .

ومن أسمائها : الرقية ، الشفاء ، الشافية ، النور ، القرآن العظيم ، السبع المثانى . وكل هذه الأسماء إنما هى شرح لبعض ما تحويه سورة الفاتحة من معان ولبعض آثارها النافعة . ولقد قال العلماء : إنها تحوى مجملا ما حواه القرآن مفصلا ومن أجل ذلك سميت أم القرآن ، ولقد روى عن سيدنا علىّ أنه قال ما معناه ، لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً فى معانى الفاتحة .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب ما تقرأ فى الصلاة ؟ : فقرأ أم القرآن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، ما أنزلت فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها وإنها سبع من المثانى ، والقرآن العظيم الذى أعطيته » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، ومعنى الحسد هنا : الغبطة .

رواه الترمذى ورواه الدارمى من قوله : ما أنزلت ، ولم يذكر أبى بن كعب ، وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة » . رواه مسلم .

وعن جبير بن نفير « رضى الله عنه » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطيتهما من كنزه الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم ، فإنها صلاة وقربان ودعاء » . رواه الدارمى مرسلا .

وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : « الٓمٓ تنزيل » و « تبارك الذى بيده الملك » . رواه أحمد والترمذى ، والدارمى . وقال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وعن علىّ ، رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه السورة ، « سبح اسم ربك الأعلى » رواه أحمد .

وعن عروة بن نوفل عن أبيه : أنه قال يا رسول الله : علمنى شيئاً أقوله إذا آويت إلى فراشى . فقال : « اقرأ : قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، فإنها براءة من الشرك » . رواه الترمذى .

وعن عقبة بن عامر ، قال : بينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ « أعوذ برب الفلق » و « أعوذ برب الناس » ويقول : يا عقبة تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما » رواه أبو داود .

ومن الذكر الاستغفار

لقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم :

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىْء قدير » .

ونعود مرة أخرى إلى التوبة فى صورة ثانية من صورها ، أو فى زاوية من أهم زواياها هى الاستغفار .

يروى علقمة ويروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ »[1] .

وقوله عز وجل :

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً » .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : فى شأن الاستغفار الخالص :

« من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

وهذا الحديث الشريف يسير فى انسجام مع قوله تعالى :

---

(١) آل عمران – آية : ١٥٣ .

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً » .

وقوله تعالى على لسان نبى الله هود :

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ » [1] .

والاستغفار مستحب فى كل الأوقات ، وإن لم يكن ذنب ، يقول الله تعالى فى إطلاق لا تحديد فيه :

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

ومع هذا الإطلاق العام فإن الله سبحانه وتعالى ذكر الأسحار باعتبارها من الأوقات التى يستغفر فيها المتقون بقوله سبحانه : « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » ومن أجل ذلك فإن الذين يستيقظون فى ثلث الليل الأخير ، يحرصون على انتهاز فرصة نزول ربنا إلى سماء الدنيا منادياً ، ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه ، ألا هل من سائل فأعطيه .. فيأخذون فى الاستغفار .

وسيد الاستغفار هو كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه :

« اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى : فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويروى الإمام الغزالى عن بعض العلماء أنه قال :

« العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الاستغفار والحمد »

---

(١) هود – آية : ٥١ .

ويروى عن قتادة رحمه الله قوله :

« القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار » .

* التهليل :

والتهليل هو الذكر بلا إله إلا الله .

ومما وصفت به كلمة : لا إله إلا الله ، أنها :

«كلمة التوحيد ، وهى كلمة الإخلاص ، وهى كلمة التقوى ، وهى الكلمة الطيبة ، وهى دعوة الحق ، وهى العروة الوثقى ، وهى ثمن الجنة »[1] .

وقد روى الترمذى بسنده عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

وقد أخرج الإمامان : البخارى ومسلم ، رضى الله عنهما من حديث أبى هريرة ، نضر الله وجهه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« من قال لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » .

---

(١) إحياء علوم الدين .

والمعنى فى الحديث الشريف أن من قال ذلك فى إخلاص مخلص وفى اتجاه إلى الله سبحانه لا يشوبه شرك .

• التسبيح والتحميد والتكبير والحوقلة :

يقول الله تعالى :

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُروبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ »[١] .

ويقول تعالى :

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ »[٢] .

ويقول جل شأنه :

« فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً »[٣]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٤] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال :

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده »[٥] .

---

(١) ق - آيتا : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الطور - آيتا : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) النصر - آيتا : ٣ ، ٤ .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، والنسائى ، والترمذى .

وعن جويرية رضى الله عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : ما زِلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قلت : نعم .

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :

« سبحان الله وبحمده عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »(١) .

وإن من الصيغ المباركة الجامعة التى تؤخذ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتى جربها الكثير من الصالحين فوجدوا لها نوراً وبركة ، ما يلى :

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله » .

وسواء أكنا بصدد الاستغفار أم غيره من التهليل والتسبيح إلخ. فالمطلوب تكرارها حتى ينفعل بها الإنسان ويتجاوب معها .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال :

« التكبير ، والتهليل والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »(٢) .

إذا حدثتكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله : إن العبد

---

(١) رواه مسلم ، والنسائى ، وابن ماجه . والترمذى .

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والنسائى .

إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن على جمع من الملائكة ؟ ألا استغفروا لقائلهن ، حتى يحيا بهن وجه الرحمن ، ثم تلا عبد الله :

« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ »[(١)] .

وعن أبي موسى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

« قل لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة »[(٢)] .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لى :

يا أبا ذر ، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى . قال :

« لا حول ولا قوة إلا بالله »[(٣)] .

ومن الذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى :

« إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ولقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

---

(١) رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٣) رواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وابن حيان فى صحيحه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه – فيما رواه الترمذى وحسنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

وروى الأئمة : أحمد والترمذى والحاكم بسندهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلىَ على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » .

قال قلت : وبعد الموت ؟ ، قال :

إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن أفضل صيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : الصيغة التى يقرؤها الإنسان فى التشهد فى الصلاة . وصيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة ، ويسعدنى هنا أن أذكر الصيغة التى أضاءت حروفها وتلألأت والتى ذكرت ظروفها فى كتاب « المدرسة الشاذلية » وهى لتفريج الكرب :

« اللهم صل صلاة جلال ، وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد ، واغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات ، فنظر إلى وجهك الكريم ، وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذى أعاذه من كل سوء .

اللهم فرج كربى كما وعدت :

« أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » .

وعلى آله وصحبه آمين » .

الفصل السابع

اقرأ باسم ربك الذى خلق

فى الدعاء

إن القرآن الكريم يذكر لنا مجموعة من الأدعية تتناسب مع ظروف الحياة المختلفة ، فهو مثلا يحدثنا عن صورة المؤمنين فى الحروب سواء فيما يتعلق بالفعل أو بالقول ويبين لنا النتائج التى رتبها سبحانه على موقفهم ، فيقول تعالى :

« وكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وما ضَعُفُوا وما اسْتَكانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » .

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرافَنَا فِى أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى ما يقال من دعاء عند نزغ الشيطان ، فيقول سبحانه :

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

ويقول فى ذلك سبحانه :

« وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » .

---

(١) آل عمران – آيتا ١٤٦ ، ١٤٨ .

ولقد أخذ كثير من الناس يتدبرون القرآن فى مواطن الدعاء ، فاكتشفوا أسراراً من أسرار الدعاء ، صرحوا ببعضها وتركوا لغيرهم أن يتدبر ويكتشف .

ومن هؤلاء الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، الذى يقول متدبراً للقرآن ومستنتجاً منه : عجبت لأربع كيف يغفلون عن أربع :

١ – عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف يغفل عن :

« حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » .

وأصل هذه القصة معروف :

يروى ابن هشام بخصوص موقف المسلمين فى أُحد بعد المعركة ثانى يوم فيها قال :

مر بأبى سفيان – وكان حينئذ قائد المشركين – ركب من عبد القيس ، فقال لهم أبوسفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكل فى مقابل ذلك زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم .

قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبوسفيان وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ، فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ

لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » .

ويقول الإمام جعفر :

٢ – وعجبت لمن ابتلى بمكر الناس به كيف يغفل عن :

« وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا » .

وهذه القصة هى قصة مؤمن آل فرعون .

لقد كان فى آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فلما قال فرعون : « ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى » قال المؤمن :

« أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ، يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا »[1] .

وأخذ يدعو قومه إلى الحق ، وأخذ يجادل ويناقش محاولا جرهم إلى سواء السبيل ، ثم انتهى به الأمر معهم أن قال :

« فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ »[2] .

لقد حفظه الله حينما فوض الأمر إليه حالا ومقالا .

٣ – وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن :

« رَبِّ إِنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

---

(١) غافر آيتا : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) غافر آيتا : ٤٤ ، ٤٥ .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » .

والحادثة يرويها القرآن الكريم فى سورة الأنبياء قائلا :

« وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ .

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ » .

٤ – وعجبت لمن ابتلى بالغم ، كيف يغفل عن :

« لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، سُبْحَانَكَ ، إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ » .

والقصة كما يذكرها القرآن ، قال :

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

وعلى غرار النسق الذى ذكره الإمام الصادق ، يمكن أن يقال :

عجبت لمن أثم كيف يغفل عن :

« رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

والقصة كما يرويها القرآن عن آدم وحواء حينما أكلا من الشجرة :

« وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ .

قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا . وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »[2] .

---

(١) الأنبياء – آيتا : ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الأعراف – آيتا : ٢٢ ، ٢٣ .

وعجبت لمن يخشى العذاب فى الدنيا ، كيف يغفل عن الاستغفار . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »(١) .

ولقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه وأن نلجأ إليه ، وأن نتضرع له فى الرخاء وفى الشدة ، وإن الإنسان وهو فى حالة النقص الدائم لمحتاج إلى الله سبحانه وتعالى، فى كل لحظة ، فهو فى حاجة إذن إلى الدعاء فى كل فترات حياته . يقول الله سبحانه وتعالى :

« وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ، وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »(٢) .

ويقول سبحانه :

« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ »

ولقد التجأ إلى الله بالدعاء الأنبياء والمرسلون : لقد دعوه فى كل وقت لاجئين إليه ، مستغيثين به فى جميع أمورهم . ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :

« وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »(٣) .

واستغاث به المسلمون ، متضرعين خاشعين داعين ، فاستجاب لهم :

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ »(٤) .

---

(١) الأنفال - آية : ٣٣ .
(٢) البقرة - آية : ١٨٦ .
(٣) الأنبياء - آيتا ٨٩ ، ٩٠ .
(٤) الأنفال - آية : ٩ .

واتجه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين عودته من الطائف بهذا الدعاء الرائع :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

والواقع أن فى الدعاء تتمثل العبودية لله سبحانه وتعالى ، واضحة جلية ، أى أنه تتمثل فيه العبادة ، فى صورة من أصدق صورها ، أما العزوف عن الدعاء ، فإنه عادة ينشأ عن نوع من عدم المبالاة بالدين ، أساسه الكبرياء التى هى أساس كثير من المعاصى والبدع والانحرافات ، والتى كانت فى أساس المعصية الشنيعة التى تورط فيها إبليس ، حينما أمره الله فيمن أمر ، بالسجود لآدم . لقد أبى واستكبر وقال :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

ولقد أوقعه كبرياؤه على الخطأ فى أيسر الأمور ، لقد جعل مناط الخيرية المادة : مادة الجسم ، ولم يهتد عقله فى ساعة كبريائه إلى أن المادة مجرد وعاء ، وأن الوعاء لا يكون مقياس التفضيل ، وأن ما فى الوعاء هو الذى يكون نفيساً سامياً أو خسيساً لا قيمة له .

ومنعه كبرياؤه أيضاً : من أن يرجع إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح ، وهى من مظاهر العبودية ، ولذلك طرد من رحمة الله . أما آدم : فإنه بمجرد أن أكل من الشجرة ، شعر بالحياء من الله ، فلجأ إليه مستغفراً تائباً

منيباً ، وتمثل فيه مظهر العبودية جلياً واضحاً بالدعاء :

« رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

* **شهر رمضان والدعاء :**

وإنه مما ينبغى فى شهر رمضان المبارك ، شهر القرآن ، أن يكثر الإنسان من الدعاء ، وذلك أنه من الأوقات التى تفتح فيها أبواب السماء ، وقد وردت الأحاديث فى قبول دعاء الصائم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى وجلالى ، لأنصرنك ولو بعد حين » .رواه أحمد فى حديثه ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما ، إلا أنهم قالوا : « حتى يفطر » .

ورواه البزار مختصراً :

« ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

وعن عبد الله – يعنى ابن أبى مليكه – عن عبد الله – يعنى ابن عمرو ابن العاص – رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » . قال : وسمعت عبد الله يقول عند فطره :

اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى .

زاد فى رواية : « ذنوبى » ، رواه البيهقى .

وعن سلمان رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى آخر يوم من شعبان قال :

« يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه ، من فطر صائماً كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء . قالوا : يا رسول الله ، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يعطى الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمرة ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن ، وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، من خفف عن مملوكه فيه ، غفر الله له ، واعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال :

خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء لكم عنهما :

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم : فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه .

وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما : فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار .

ومن سقى صائماً ، سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة » .

رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، ثم قال : صح الخبر . ورواه من طريقه البيهقى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً وحضر رمضان :

« أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه ، فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب فيه الدعاء ، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيرًا فإن الشقّ من حرم فيه رحمة الله عز وجل » .

رواه الطبرانى ورواته ثقات .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثلاثة لا ترد دعوتهم : « الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما ، والبزار ولفظه :

« ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع » .

وإن من الملاحظات الدقيقة التى يلاحظها ذوو البصائر المشرقة ، أن الآيات التى تتحدث عن أحكام الصوم وحكمته ، وعن شهر رمضان ، جمعت فى مكان واحد من سورة البقرة ، ويفجأ الإنسان أنه يتخللها قوله تعالى :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

وهذه المفاجأة : لا تمر مهملة ، كلا ، فإن كل وضع فى القرآن له حكمته ، ومن الحكمة التى تبدو لنا فى تخلل آية الدعاء . فى وسط الآيات عن رمضان والصيام ، أن الدعاء فى أثناء ذلك جدير بالاستجابة ، لما يحيط به من جو روحانى هو جو العبودية والتقوى . الناتج عن الصيام ، وعن الصلاح الذى يتسم به من صام إيماناً واحتساباً ، والذى تصف الأحاديث النبوية الشريفة بعض مظاهره وبعض ثماره :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل :

« كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابَّه أحد ، أو قاتله ، فليقل : إنى صائم ، إنى صائم .

والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه »[1] .

وفى رواية للبخارى :

يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وفى رواية لمسلم :

كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى :

---

(١) رواه البخارى ، واللفظ له ، ومسلم .

« إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى ، للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

* **من الدعاء فى القرآن :**

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إياكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » .

« وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أتَتَّخِذُنا هُزُواً ، قالَ : أعُوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » [١]

« وإذْ يرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَتِنَا أُمَّة مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » [٢] .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِى الْآخِرة حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّار » [٣] .

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ، فَلَيْسَ مِنِّى ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإنَّهُ مِنِّى ، إلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إلَّا قَليلاً مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، قَالُوا :

---

(١) البقرة - اية : ٦٧ .

(٢) البقرة - آيتا ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣) البقرة - آية : ٢٠١ .

لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ ، كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[1] .

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا ، فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[2] .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »[3] .

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »[4] .

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ »[5] .

« رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »[6] .

---

(١) البقرة - آيتا : ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) البقرة - آيتا : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٣) آل عمران - آية : ٨ .

(٤) آل عمران - آية : ١٦ .

(٥) آل عمران - آية : ٣٨ .

(٦) آل عمران - آية : ٥٣ .

« وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »(١).

« رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »(٢).

« رَبَّنَا إنَنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ »(٣).

« الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا »(٤).

« وَإذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »(٥).

« قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »(٦).

« وَإذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ، قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »(٧).

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ »(٨).

---

(١) آل عمران - آية : ١٤٧ .

(٢) آل عمران - آية : ١٩١ .

(٣) آل عمران - آية : ١٩٤ .

(٤) النساء - آية : ٧٥ .

(٥) المائدة - آية : ٨٣ .

(٦) المائدة - آية : ١١٤ .

(٧) الأعراف - آية ٤٧ .

(٨) الأعراف - آية : ١٢٦ .

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْلِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »[١]

« فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[٢].

« رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْلِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »[٣]

« إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً »[٤].

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى ، وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى ، يَفْقَهُوا قَوْلِى »[٥].

« فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ : رَبِّ زِدْنِى عِلْماً »[٦].

« وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَـهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ . وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ، رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَاصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ »[٧].

---

(١) الأعراف - آية : ١٥١ .

(٢) يونس - آيتا : ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) إبراهيم - آيتا : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) الكهف - آية : ١٠ .

(٥) طه - الآيات : ٢٥ - ٢٨ .

(٦) طه - آية : ١١٤ .

(٧) الأنبياء - الآيات : ٨٧ - ٩٠ .

« قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[١] .

« وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ »[٢]

« إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ ، رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ »[٣] .

« وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ »[٤] .

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً »[٥] .

« وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً »[٦] .

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[٧]

« فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »[٨] .

---

(١) المؤمنون – آيتا : ٩٣ ، ٩٤

(٢) المؤمنون – آيتا : ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) المؤمنون – آية : ١٠٩

(٤) المؤمنون – آية : ١١٨ .

(٥) الفرقان – آيتا : ٦٥ ، ٦٦ .

(٦) الفرقان – آية : ٧٤ .

(٧) الشعراء – الآيات ٨٣ – ٨٩ .

(٨) النمل – آية : ١٩ .

« قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْلِى ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »(١).

« فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »(٢).

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ ، وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(٣).

« فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »(٤).

« رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ »(٥).

« قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ، إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ »(٦).

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ »(٧).

« وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »(٨).

---

(١) القصص - آية : ١٦ .

(٢) القصص - آية : ٢١ .

(٣) غافر - آيتا : ٧ ، ٨ .

(٤) غافر - آية : ٤٤ .

(٥) الدخان - آية : ١٢ .

(٦) الأحقاف - آية : ١٥ .

(٧) النجم - آية : ٥٨

(٨) الحشر - آية : ١٠ .

« رَبَّنَا عَلَيْكَ توكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[١].

« يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[٢].

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »[٣].

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ »[٤].

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » آمين .

* * *

والآن ننتقل إلى من كان خلقه القرآن ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً على الدعاء وعالجه من نواح متعددة وكان فى كل ذلك متمشيًا تمشياً كاملا مع القرآن .

---

(١) الممتحنة – آية : ٤ ، ٥ .

(٢) التحريم – آيتا : ٨ .

(٣) سورة الفلق .

(٤) سورة الناس .

إن القرآن الكريم حث على الدعاء ، وذكر أنماطاً من الدعوات ومواقف من اللجوء إلى الله فى ذلك . ولقد نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النهج : لقد حث صلوات الله وسلامه عليه ، على الدعاء واستفاض صلى الله عليه وسلم فيه استفاضة تتناسب مع العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى ، التى حققها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وحققها بسلوكه وحققها بمشاعره وأحاسيسه التى أعلنت فى وضوح ، العبودية فى أتم صورها .

وكما تتسم الدعوات فى القرآن بالسهولة الممتنعة فى الأسلوب فإن دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم تتسم بالجزالة والوضوح .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو بما يتناسب مع الوضع الذى هو فيه ، زماناً كان ، أو مكاناً ، أو حالة نفسية ، أو اجتماعية .

بل كان له فى كثير من الحالات أدعية عدة لكل حالة بذاتها ، تتفاوت طولا وقصراً ، وتختلف معنى ولفظاً .

ونحن الآن بعد أن أوجزنا الحديث عن موقف القرآن من الدعاء . نبدأ الآن بالحديث عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء ، وهذا الذى نشرع فيه الآن إنما هو توضيح للموقف القرآنى نفسه ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وإننا إذن لم نخرج عن الحديث فى القرآن حينما نتحدث عن موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدعاء ، وحينما نستفيض فى ذكر صيغ من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• فضل الدعاء :

عن أبي هريرة رضي الله عنه – فيما أخرجه الإمام أحمد والترمذى – عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض »[١].

وعن النعمان بن بشير ، رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ :

« وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ »[٢].

وروى عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذى .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا أتاه الله تعالى إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

فقال رجل من القوم :

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ورواه أبو يعلى من حديث علي .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى . وقال حديث صحيح .

« إذن نكثر » قال : « الله أكثر » رواه الترمذى ، والحاكم .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل فى مسألة إلا أعطاها إياه : إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة »[١] .

وعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما عن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال :

« يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول :

عبدى إنى أمرتك أن تدعونى ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعونى ؟

فيقول : نعم يا رب .

فيقول : أما إنك لم تدعنى بدعوة إلا استجبت لك ، أليس دعوتنى يوم كذا وكذا ، لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك ؟

فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

ودعوتنى يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجاً ؟

قال : نعم يا رب .

فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا .

ودعوتنى فى حاجة أن أقضيها لك فى يوم كذا وكذا فقضيتها ؟

فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إنى عجلتها لك فى الدنيا .

---

(١) رواه أحمد رضى الله عنه

ودعوتنى يوم كذا وكذا فى حاجة أقضيها لك فلم تر قضاءها ؟

فيقول : نعم يا رب .

فيقول : إنى ادخرت لك بها فى الجنة كذا وكذا » .

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له : إما أن يكون عجل له فى الدنيا ، وإما أن يكون الأجر له فى الآخرة ، قال : فيقول المؤمن فى ذلك المقام : يا ليته لم يكن عجل له شيء من دعائه » [١] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

قال الله تعالى :

« يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لآتيتك بقرابها مغفرة [٢] .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله عز وجل يقول :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا دعانى » [٣] .

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه أحمد والحاكم .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

فضله :

وعن أبي صالح – فيما أخرجه ابن ماجه – قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من لم يسأل الله يغضب عليه » .

وعن عبد الله – فيما أخرجه الترمذى – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » .

وعن أبي ذر[1] رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب

---

(١) حينما كان أبو إدريس الخولانى يروى هذا الحديث بالذات فإنه كان يتخذ هيئة مخصوصة إجلالا للحديث . لقد كان يجثو على ركبتيه أولا ثم يبدأ الحديث .

رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منكم مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[١] .

*** الدعاء والقضاء :**

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يذنبه »[٢] .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد العمر إلا البر »[٣] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يغنى حذر عن قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم يتنزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة »[٤] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه البزار ، والطبرانى ، والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله شيئاً » يعنى أحب إليه من أن يسأل العافية ، وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء »[١].

ويقول الإمام الغزالى :

فإن قلت : ما فائدة الدعاء والقضاء لا مردّ له ؟

فاعلم أن القضاء رد البلاء بالدعاء واستجلاب الرحمة ، فالدعاء سبب لرد البلاء كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس ، من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى ألا يحمل السلاح وقد قال تعالى :

« خذو حذركم » .

وألا تسق الأرض بعد بث البذور ، فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر ، وإن لم يسبق لم ينبت ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول .

وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر ، فالذى قدر الخير قدره لسبب ،والذى قدر الشر قدر لدفعه سبباً ، فلا تناقض فى هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته » اهـ .

---

(١) رواه الترمذى ، والحاكم .

* **ثمرة الدعاء :**

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لا تعجزوا فى الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد »[١].

وعن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن النبى ، صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

قالوا : إذن نكثر ؟

قال : الله أكثر .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل »[٣].

* **استجابة الدعاء :**

عن سلمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إن الله حى كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين »[٤].

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم .
(٢) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ، والحاكم .
(٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه .
(٤) رواه أبو داود ، والترمذى ، وحسنه .

فاذا أردت الإستجابة فابدأ :

١ - بالتوبة الخالصة النصوح .

٢ - وتحر الحلال .

فعن ابن عباس ، فيما أخرجه الحافظ ابن مردويه ، تليت هذه الآية عند النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » فقام سعد بن أبى وقاص فقال :

يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال :

« يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيمّا عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

* **الدعاء فى الرخاء :**

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء فى الرخاء »(١).

* **دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب :**

عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل »(٢).

---

(١) رواه الترمذى والحاكم .

(٢) رواه مسلم .

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل آمين ولك بمثل »[١].

وعن صفوان بن عبد الله فيما رواه الإمام مسلم – قال :

قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء فى منزله ، فلم أجده ، ووجدت أم الدرداء .

فقالت أتريد الحج العام ؟

فقلت : نعم .

فقالت : ادع لنا بخير ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب[٢] مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل .

قال : فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء ، فقال لى مثل ذلك يرويه – عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

• أوقات الدعاء وأماكنه :

والدعاء يصح فى كل وقت ، بيد أن هناك أوقاتاً وأماكن أرجى فى قبول الدعاء من غيرها ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوقاتاً للدعاء ، منها ثلث الليل الأخير .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أى فى حالة غيبة أخيه .

من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ » رواه البخارى .

ولقد سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن : أى الدعاء أسمع ؟ فقال :

« جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » رواه الترمذى وحسنه .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء » .

ونقل البيهقى فى السنن الكبرى عن الإمام الشافعى ، أنه قال : بلغنا أنه كان يقال :

« إن الدعاء ، يستجاب فى خمس ليال ، فى ليلة الجمعة ، وليلة الأضحى ، وليلة الفطر ، وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان » .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ساعتان لا ترد على داع ، دعوته : حين تقام الصلاة ، وفى الصف فى سبيل الله » رواه ابن حبان فى صحيحه .

الأماكن الطاهرة المباركة ، وأشرفها الحرم المكى والحرم المدنى ، والمسجد الأقصى .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً :

« الصائم لا ترد دعوته »[٢] .

---

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) الترمذى وحسنه .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا فيه من الدعاء »[١] .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال »[٢] .

« إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً وساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فَقَمِنٌ أَن يستجاب لكم »[٣] .

* **من جوامع الدعاء :**

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئًا ، قلنا يا رسول الله ، دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً ؟ فقال ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله تقول :

« اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[٤] .

وعنه رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) انظر إحياء علوم الدين .

(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر »[١] .

وروى الحاكم فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا فى الدعاء ؟

قالوا : نعم يا رسول الله .

قال : قولوا اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

---

(١) رواه مسلم .

الفصل الثامن

اقرأ باسم ربك الذي خلق

أسس العقيدة الإسلامية

• **إثبات الرسالة :**

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل . إنما هى إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ، واختلفت أساليبه ، وقد بدأ الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كأسلافه ، بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء : وأن الوحى ينزل عليه تباعاً .

وقد أرسله الله تعالى ، لحكمة سامية قد رددها القرآن فى غير ما موضع : هى تزكية النفوس وتطهيرها ، وتزكيتها وتطهيرها خلقيًّا ، واجتماعيًّا ، مؤسساً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة .

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(١) .

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران – آية : ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة – آية : ١٢٩ .

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

ولكن العرب سخروا من دعوته ، وكان لا بد من أن يفحمهم بآية من آيات الله ، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن .

لقد تحداهم به فى عنف ، وتحداهم – متدرجًا بهم – من أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرًا .

إلى أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورة من مثله . قال تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » الإسراء(٨٨) .

« أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ؟ قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » هود (١٣) .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » البقرة(٢٣،٢٤)[1] .

---

(١) فى هذه الآيات كرر القرآن لفظ : (مثل) والمثلية لا تختص بجانب دون جانب ، وإنما تعم جميع المناحى . والواقع أن النقاش فى أن القرآن : معجز بأسلوبه أو بمعانيه ، أو بقصصه ، أو بأخباره عن المغيبات أو بغير ذلك من وجوه ، إنما هو : نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية ، التى هى فى التماثل من جميع النواحى .

قال صاحب البحر المحيط : والمثلية فى حسن النظم ، وبديع الوصف ، وغرابة الأسلوب ، والإخبار بالغيب ، مما كان وما يكون . وما احتوى عليه . من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص . والحكم والمواعظ والأمثال ، والصدق والأمن من التحريف والتبديل (ج ١ ص ١٠٤ – ١٠٥) ، ومنشأ الاختلاف ، فى تحديد وجوه الإعجاز فى القرآن : راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية ، والاتجاهات الفكرية ، لإدراكها ومعرفتها . فمثلاً ، من وجد القرآن مصدقاً لما بين يديه =

ولم الشك فى أمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مع أنه لو أخبرهم : أن خيلا وراء الوادى ستغير عليهم لصدقوه لأنهم لم يعهدوا فيه كذباً ؟ . .

على أنه قد لبث فيهم من قبل أربعين عاماً ، فلم يحدث بنبوة ولا برسالة : ذلك أن هذا الأمر إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب .

« قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » يونس (١٦) .

ويطلب إليهم القرآن ، أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : بالصدق ، والأمانة ، ورجاحة العقل . قال تعالى :

« قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[1] » سبأ(٤٦).

= من التوراة ، والإنجيل ، وأخبار السابقين ، والغيبيات التى لا تحيط بها البشرية علماً ، حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك .

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب وما له من روعة تملك على السامع شعوره ووجدانه ، حصر الإعجاز فى ذلك . ومن أجال فكره فيما حواه القرآن . من الأسرار الكونية التى تكشف عنها العلوم والبحوث أياً كانت . فهو مصدق لما فى الطبيعة ، والفطر . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

(١) والمعنى على ما ورد فى الزمخشرى « ملخصاً » .

متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً « ثم تفكروا » فى أمر محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به .

أما الاثنان . فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين . لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى لا يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه .

إنما أعظم بواحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتحصنتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصاً وكذلك =

ولِمَ الشك فى أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمح دنيوى :

« قُلْ : مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » .

ولِمَ التشكك فى أمره وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب .

قال تعالى :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَنْ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » العنكبوت(٤٨).

هذه الظروف ، وهذه الملابسات ، فضلا عن القرآن ، ترشد إلى أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، كان صادقاً فى دعواه .

* **معارضة العرب :**

بيد أن العرب تغالوا فى المعارضة ، حتى لقد وصلوا أحياناً ، إلى حد السخف ، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد ، وكان دائماً يفحمهم فى قوة .

لقد قالوا : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ » ؟

فرد الله عليهم بما يقطع حجتهم :

= الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده .

من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الرؤية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف . وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم : ما به من جنة ، بل علمتموه : أرجح قريش عقلا ، وأصلبهم رأياً ، وأصدقهم قولا ، وأنزههم نفساً . فكان مظنة لأن تظنوا به الخير . وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

« وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » .

وقال : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً » .

« وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ؟ فرد عليهم القرآن فى أسلوب لاذع : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

ولم يجد اليهود ولا النصارى مفرًا من الاعتراف ، بأن الرسل السابقين كانوا حقًّا كذلك .

وقال العرب :

« لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ؟ » .

فإذا بالقرآن يعلل ذلك تعليلا فى غاية القوة والوضوح :

« كَذَلِكَ ، لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً » [1] .

ورأوا ، أن يكون الرسول ملكاً ، فإذا بالقرآن يجيبهم فى منطق صارم :

---

(١) وهذا أيضاً من اعتراضاتهم ، واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق ، وتجافيهم عن اتباعه ، قالوا : هلا نزل عليه دفعة واحدة ، فى وقت واحد ، كما نزلت الكتب الثلاثة ؟ وما له أنزل على التفاريق ؟

والقائلون قريش ، وقيل اليهود .

وهذا فضول من القول ، ومماراة بما لا طائل تحته : لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به : كان يختلف بنزوله جملة واحدة أومفرقاً ، وقوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك » . « جواب هم » ، أى كذلك أنزل مفرقاً .

والحكمة فيه : أن نقوى ، بتفريقه ، فؤادك حتى تعيه وتحفظه ، لأن المتلقن : إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزءاً عقب جزء . ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه .

والرسول ، صلى الله عليه وسلم : فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمياً : لا يقرأ ولا يكتب ، وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والحفظ ، فأنزل عليه منجماً فى عشرين سنة ، وقيل فى ثلاث وعشرين . وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين . . « عن الزمخشرى ج ٢ ص ١٠٩ »

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ » .

ويذكر ذلك فى موضع آخر مصوراً تعنتهم فى إنكار النبوة فيقول :

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدَى ، إلا أَنْ قَالُوا ، أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً » ؟

ويرد عليهم القرآن معللا الأمر بتعليل آخر غير السابق فيقول :

« قُلْ : لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسُولا » .

وهذا التعليل فى غاية العمق . فإنه ينطوى على سبب من أهم أسباب إرسال الرسل ، فالملائكة ليسوا – بطبيعتهم – فى حاجة إلى من يهديهم من الناحية الأخلاقية : إنهم ملائكة .

ويتعمد القرآن أن يصفهم بأنهم « يمشون مطمئنين » فيثبت بذلك توضيح طبيعتهم الملائكية فى أذهاننا ، ومع ذلك يقول ؟

« لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسُولا » .

لم ؟ .. إنهم ملائكة . وهم يمشون مطمئنين فما حاجتهم إلى الرسالة ؟

الواقع أن مهمة الرسول الأولى ليست الأخلاق ، وإنما هى معرفة الله والملأ الأعلى وما وراء الطبيعة ، وذلك لا يتأتى فى صحة لا يشوبها خطأ بمنطق عقلى أو قياس نظرى ، وإنما يتأتى عن الله بواسطة سفرائه إلى عباده ، وهم الرسل .

والملائكة كالبشر : عاجزون عن معرفة الله إلا به . ولقد قالوا ، كما حكى القرآن عنهم فى سورة البقرة : ٣٢ : « سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا » .

أما الأخلاق فإنها فى المرتبة الثانية بعد معرفة الله .

وأرجفوا : بأن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، يستمد القرآن من شخص معين ، فرد عليهم القرآن فى قوة :

« لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجمِىٌّ ، وهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ » .

ولما استيأس العرب من الجدل المنطق تقمصوا عقلية الصبيان :

« وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَها تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ — كَمَا زَعَمْتَ — عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِى السَّماءِ ، ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ » .

فيجيبهم القرآن فى سهولة قوية ، لاذعة ، جادة ساخرة :

« قُلْ : سُبْحانَ رَبِّى ! هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولا ؟ »

ويثور العرب ، حينما يرون منطقهم ينهار فينادون :

« يأَيُّها الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ، إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ ما تَأْتِينا بِالْملائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟ »

ويرد عليهم القرآن مبيناً لهم ما قد خفى عنهم .

« ما نُنَزِّلُ الْملائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كَانُوا إِذَنْ مُنْظَرِينَ » .

ويصور القرآن فى النهاية موقفهم الحقيقى الذى لا يخرج عن أن يكون عناداً لا شائبة فيه لطلب الحق ولا للرغبة فى الهدى فيقول :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » [1] .

« وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْك كِتاباً فِى قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سورة الحجر – آيتا : ١٤ ، ١٥ .

إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ » .

فلما أخذتهم الحجة من جميع أقطارهم ، ورأوا أنهم أضعف من أن يغلبوا بالمنطق ، أعرضوا وقالوا :

« قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِى آذانِنا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجابٌ ، فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُون »[1] .

فيذكرهم القرآن بموقف الأمم قبلهم ، وينذرهم بعذاب : كما هى سنته مع هذا النوع من المعاندين :

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ » .

حقًّا لقد كانت خصومة العرب للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنيفة ، قوية ، ولقد صورها القرآن فى قوتها وفى عنفها ، ولم يأب أن يذكر ما فاهت به العرب مما يسيء الرسول ، فذكر وصفهم له بالجنون ، وبالشعر ، وإنه ساحر أو مسحور ، وبأنه ليس من عظماء القريتين[2] ، وبأنه يأخذ القرآن من غيره ، أو بأن القرآن ليس إلا سحراً ، أو أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

ذكر القرآن كل ذلك ، وصور الخصومة فى عنفوانها عارضاً أدلة الجاحدين ، ذلك أن القرآن هداية الله ، وهدايته ، سبحانه وتعالى : هى الحق الذى يقذف على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

*** وجود الله :**

لقد كان من الطبيعى – بعد أن ثبتت النبوة أن يتلقى العرب كل ما جاء

---

(١) فصلت – آية : ٥ .

(٢) مكة والطائف .

فى القرآن بالقبول ولكن القرآن لم يكن يلق القول على علاته ، وإنما يأتى بالقضية مبرهناً عليها بالدليل تلو الدليل ، فيرضى العقل ويطمئن النفس ، ويقود الضمير إلى الإذعان ، وبرغم أن وجود الله أوضح من أن يبرهن عليه فقد وجد فى كل الأزمنة من جحدوا كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا [1] .

وما من شك فى أن مسألة إثبات وجود الله لم تكن فى يوم من الأيام هدفاً من أهداف القرآن ، ولم تكن فى يوم من الأيام هدفًا من أهداف الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أو أحد أصحابه وذلك ، أن الإيمان بوجود الله مسألة فطرية وبدهية .

ونحن هنا نسير على أنه يمكن أن يؤخذ من القرآن أدلة على وجود الله وإن لم يكن ذلك هدفاً من الأهداف القرآنية ، وإذا نسقنا الأدلة أو نظمناها فإنما يرجع ذلك إلى استنتاج من نصوص هدفها الصحيح بيان عظمة الله وتدبيره وقدرته وهيمنته على كل ما فى العالم من صغيرة وكبيرة وبيان عناية الله ورعايته وإحكامه المحكم وإبداعه المتقن لكل ما يسرى فى العالم من قوانين ونواميس .

إن القرآن يمكن أن يُؤْخذ منه الرد على من انحرفت فطرتهم فيقال : إنه يرد عليهم أولا بضروريات فكرية ، فيثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق :

« أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ »

« وَمِنْ آيَاتِهِ : أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » .

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

ويؤكد هذا بمبادئ مقررة ، يعترف بها كل إنسان ، عندما يفكر فيها تفكيرًا بسيطاً : إنه من البين أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة ولا يمكن من جانب آخر أن يكون علة صياغة : نفسه : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » .. ؟

ولا يقتصر القرآن على ذلك : بل ورد فى غير ما موضع ، وفى غير ما سورة ذلك الدليل الذى يطلق عليه أحياناً ، دليل العناية ، وأحياناً أخرى ، دليل النظام أو القصد أو التدبير ، أو الغائية ، وهذاالدليل هو الذى يستند إلى ما تراه فى العالم من تناسق ، وتضامن ، وانسجام ، ومن تدبير محكم ، وعناية تامة بكل صغيرة وكبيرة ، وترابط لا انفصام له بين أجزاء العالم وأجزاء وحداته أيضاً .

وقد استخدم القدماء هذا الدليل ، ولا يزال المحدثون يستخدمونه ، ويعتبره بعضهم أوضح الأدلة على وجود الله ، بل وأقواها ، وهو فى الوقت نفسه ، أسهلها بالنسبة للإدراك الإنسانى .

قال الله تعالى :

« وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » .

« اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ » .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً » .

« وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ » .

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً » .

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً . وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً . وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً . وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً . وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً . وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ، لِنُخْرِجَ

حبًّا وَنَباتاً ، وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً ؟ » .

وإذا تصفحت القرآن تبينت مصداق قوله تعالى :

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها » .

وكثيراً من آى القرآن مايجمع بين دليل الخلق ودليل العناية :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى
الْبَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ اَللهُ مِنَ السَّماء مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ
دَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
سَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »[١] .

وتوجد آيات متتالية فى سورة الروم ، تجمع بين الدليلين – الخلق
عناية – وهى قوله تعالى :

« يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ اَلْميتِ وَيُخْرِجُ الْميتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ
تِها وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آياتِه أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ .
نْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
حْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ . وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ
خْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ
لَّيلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آياتِهِ
يكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ
ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنَ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ،
إِذا دعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ »[٢] .

هذه الأدلة تكاد تتضمن كل ماعداها من أدلة ، قديمة كانت أو حديثة

---

(١) سورة البقرة – آية : ١٦٤ .

(٢) سورة الروم – الآيات : ١٩ – ٢٥ .

برغم اختلاف أساليب التعبير ، بحسب اختلاف البيئة أو الزمن :

إنها تتضمنها فى صورتها السهلة : « والأثر يدل على المؤثر » .

وتتضمنها فى صورتها الكلامية ، وكل حادث لابد له من محدث .

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب .

وتتضمنها فى صورتها الفلسفية الحديثة ، سواء رجعنا فيها إلى شعور الوجدا
أو فكرة الكمال أوغير ذلك .

« **الوحدانية** :

وإذا كان القرآن لايجعل من أهدافه إثبات وجود الله ، فإنه يجعل م
أهدافه الكبرى إثبات التوحيد ، والإسلام هو دين التوحيد ، والله سبحا
وتعالى ، واحد لاشريك له .

ويستدل القرآن بالمشاهدة الصادقة : « لَوْكان فِيهما آلِهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدتا » .
هذه المشاهدة العادية ، تلبس صورة منطقية رائعة ، فلو كان هنا
إله غير الله إذن : لذهب كل إله بماخلق ، ولعلا بعضهم على بعض .

على أن القرآن لايكتفى بالمشاهدة وبالمنطق ، وإنما يرجع بالإنسان إل
وجدانه ويثبت الوحدة عن طريق النظام والعناية والتدبير ، فيقول فى آيات
رائعة :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ، آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِق
ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ
أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً ، وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً ، وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ ، وَجَعَل
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً ؟ أَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ؟ . أَمَّنْ يُجيب

لْمُضْطَرَّ إذا دَعاهُ؟ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ؟ أإلهٌ مَعَ للهِ؟ قليلاً ما تذكَّرونَ. أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَنْ يُرْسِلُ لرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ؟ أَإِلهٌ مَعَ اللهِ؟ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

«أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ؟ أإلهٌ مَعَ اللهِ؟ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين»(١).

* **العلم** :

والله سبحانه وتعالى عالم: إنه عالم الغيب والشهادة.

«اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَمَا تَزْدادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ. عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ نْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ»(٢).

والله تعالى لا يعلم الماضى والحاضر فحسب، ولكنه يعلم المستقبل يضاً:

«مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ بْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ»(٣).

وهو يسخر ممن جعلوا لله شركاء، ويسألهم فى سخرية وإنكار:

«وَجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ، قُلْ: سَمُّوهُمْ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟»(٤).

وفى القرآن آية يرى بعضهم، أنها تشير إلى العقل الباطن أو اللاشعور:

---

(١) سورة النمل – الآيات: ٥٩ – ٦٤.

(٢) سورة الرعد – الآيات: ٨ – ١٠.

(٣) سورة الحديد – آية: ٢٢.

(٤) سورة الرعد – آية: ٣٣.

« وإن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى »[١] .

والقرآن يرشد إلى أن علمه ليس مقصوراً على ذاته كما يرى أرسطو وليس مقصوراً على الذات والكليات والجزئيات جميعها على الوجه التام :

« يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ يَعْـرُجُ فِيها ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ . وَقَالَ الذينَ كفَرُوا لاتَأْتِينا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ ، لايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمواتِ وَلَا فِ الْأَرْضِ وَلاَأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكبَرُ إِلاَّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ »[٢] .

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها ، وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلارَطْبٍ وَلايَابِس إِلاَّ فِى كِتاب مُبِينٍ . وَهُوَ الذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهار ثُ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُ تَعْمَلُونَ »[٣] .

أما دليل القرآن على علم الله ، فهو فى غاية الوضوح والقوة :

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

٥ مظاهر صفاته :

الله عالم وهو مريد ، وقادر ، وحكيم ، ومن مظاهر صفاته هذه المتضامنة هذا الكون وما حواه من بديع صنعته ، والقرآن يتحدث فى استفاض عن مظاهر هذه الصفات فى كثير من السور ، بل لا تكاد تخلو سو

---

(١) سورة طه — آية : ٧ .

(٢) سورة سبأ — آيتا : ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الأنعام — آيتا : ٥٩ — ٦٠ .

من هذه المظاهر كلها أو بعضها .

وإليك نموذجاً يحدثك بذلك .

« اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . إلى قوله تعالى : لِلَّذِين اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى »[١] .

ه البعث :

الله سبحانه وتعالى خالق ، وهو واحد ، مريد ، عالم ، قادر .. إلخ .

وهو أيضاً باعث ، ومسألة البعث ، مسألة أنكرها قوم يطلق عليهم الإمام الغزالى : الطبيعيون ، وهم قوم أنكروا البعث مع اعترافهم بالصانع .

لقد اعترفوا بالصانع لما رأوه فى عجائب الطبيعة من تناسق محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة ، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ، ولذلك تفنى بفنائه ، وكانت نتيجة ذلك أن جحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحساب .

على هؤلاء وأضرابهم ، على اختلاف بيئاتهم وأساليبهم يرد القرآن فى غير ما موضع .

وطبيعيو العرب لم يكن عندهم فى هذه المسألة منطق جدلى فلسفى ليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد :

« وَقَالُوا : أَإِذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَديدًا »[٢] .

---

(١) سورة الرعد – الآيات : ٢ – ١٧ .

(٢) سورة الإسراء – آية : ٤٩ .

« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[١] .

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة فى الكون ، وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازى على ما قدم :

« أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

وفى القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة إلى مظاهر قدرة الله وعدالته . وفيه آيات متتالية فى آخر سورة يس تحدثت عن رأى منكرى البعث . ثم ردت عليهم ردوداً متنوعة مختلفة واضحة قوية ، ونحن نذكر هذه الآيات ، ونذكر تفسير الكندى لها نقلا عن كتاب الكندى للأستاذ أبى ريدة :

« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » .
قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .
الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .[٢]

ويقول الأستاذ أبو ريدة ، عن تفسير الكندى لهذه الآيات :

إن « فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التى تتضمنها هذه الآيات من جهة ، ويستخرج النتائج التى تلزم عنها من جهة أخرى ، وهى :

---

(١) سورة يس – آية : ٧٩ .

(٢) سورة يس – الآيات : ٧٨ – ٨٣ .

١ – وجود الشيء من جديد ، بعد كونه وتحلله السابقين : ممكن . بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة ، لا سيما أن جمعَ المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم ، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب – هذا الدليل موجود فى الآيات فى كلمات قليلة :

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

٢ – ظهور الشيء من نقيضه ، كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس . وإذن يمكن أن تدب الحياة فى الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى .

وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر ، وهو :

أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق – هذا الدليل موجود فى آية :

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً ، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ » .

وقد انتفع به الأشعرى فى إثبات إمكان البعث .

٣ – خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت ، أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن ، وهذا هو مضمون آية :

« أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ! ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » .

٤ – الخلق ، والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق ، لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان ، خلافاً لفعل البشر الذى لا يتم إلا فى زمان ، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل ، وهذا هو معنى آية :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وهذه الآية ، فى رأى الكندى ، إجابة عما فى قلوب الكفار من النكير

بسبب ظنهم أن الفعل الإلهى المتجلى فى خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته ، قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر .

لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول ، فجاءت الآية حاسمة فى بيان نوع الفعل الإلهى ، وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة ، لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زمنى .

« فأى بشر – كما يقول الكندى – يقدر بفلسفة البشر أن يجمع فى قول بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله ، جل وتعالى ، إلى رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فيها من إيضاح ، أن العظام تحيا بعد أن تصير رميماً ؟ وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ؟ وأن الشىء يكون نقيضه ! ! كلت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية » اهـ .

على أننا لا نترك موضوع البعث دون أن نوجه ذهن القارئ إلى هذا التنظير البديع الذى ذكره القرآن الكريم ، بين الأرض الموات التى يحييها الله فتنبت من كل زوج بهيج ، والعظام والرفات التى يحييها الله ويصورها فيحسن تصويرها :

« يـأَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحامِ مَا نَشاءُ إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .. ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ

يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ؛ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ » .

• مشاهد القيامة :

ويسبق البعث ويعقبه أمور تحدث عنها القرآن فى كثير من الآيات ووصفها فى روعة أخاذة :

إنها تصف يوم القيامة ، وتتحدث عن الحساب والميزان ، وتصف حالة المؤمنين والكافرين ، وتصور النار فى صورتها البشعة الكريهة والجنة فى روحها وريحانها وصورها ورياضها الفيحاء ، وسنكتفى من كل ذلك بآيات من آخر سورة الزمر :

يقول الله تعالى :

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمواتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذَا ؟ قَالُوا : بَلَى . وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ . قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إِذا جَاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِينَ . وَقَالُوا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[١] .

---

(١) سورة الزمر – الآيات : ٦٧ – ٧٥ .

الفصل التاسع

اقرأ باسم ربك الذى خلق

إلى النصر بإذن الله

يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »[1].

أخرج أبو حاتم ، وابن مردوَيْه ، عن جابر رضى الله عنه قال :

نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى المسجد ، فكثر الناس فى المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفى ردائه على عاتقه ، فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟

قال : نعم ، فقال الأنصارى : بيع ربيح ، لا نقيل ولا نستقيل .

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت فرحاً كثيراً ، وذلك أنها بينت لهم فى صورة من اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة ، وهو جزاؤه الجنة سواء أكانت نتيجته النصر أم كانت نتيجته الاستشهاد .

– إن الجهاد على أى وضع كانت نتيجته، ثمنه الجنة . ورسول الله صلى

(١) سورة التوبة – آية : ١١١ .

الله عليه وسلم يقول :

« الجنة تحت ظلال السيوف » .

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم ، وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة ، لقد صور الله ذلك بالبيع والشراء .

والمعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد ، والمشترى هو الله سبحانه ، ومكان البيع هو ميدان المعركة ، وتسجيل العقد فى عدة جهات موثوق بها هى الكتب السماوية .

والربح مؤكد على أية حال كانت نتيجة الجهاد ، لأنه سبحانه لم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه (١) .

أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فقد ذكر الله صفاتهم وعدها واحدة واحدة : فهم التائبون .

وأول ما ذكر الله من الصفات الصفة التى لا يتأتى للمؤمن أن يستقيم فى صلته بالله إلا بها وهى صفة التوبة فهم التائبون ، والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى : يقول سبحانه :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » .

والله يفرح بها .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن » .

وهم العابدون : إنهم عابدون بجهادهم ، وهم عابدون بعملهم ، وهم عابدون بأقوالهم ، لقد صيروا حياتهم فى كفاحها وفى نضالها وفى قولها وصمتها

---

(١) انظر تفسير الكشاف فى ذلك .

وفى حركتها وسكونها ، إلى عبادة ، فتحققوا بقوله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ » .

وهم الحامدون لله فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، فى الرخاء والشدة : لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتصريفه أحكم تصريف .

وهم السائحون ، أى يطرقون كل الوسائل فى سبيل الرقى الذاتى : بالسياحة فى مجال المعرفة ، والسياحة فى مجال العلم ، والسياحة فى مجال العبادة ، وشعارهم أن من استوى يومه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان ، فالسياحة هى الضرب فى جميع المجالات تقرباً من الكمال الذى يحبه الله للمؤمن .

وهم الراكعون الساجدون . أى المصلون فى خشوع وخضوع .

وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، بعد أن ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر فى أنفسهم ، وذلك ما عبر الله عنه ، سبحانه بقوله :

« والحافِظُونَ لِحدُودِ الله » .

وبعد : فإن الآية الكريمة تنتهى بقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق ، بشرهم بالفوز ، بشرهم بالأمن ، وبشرهم بالسعادة ، وبشرهم بالنصر .

القرآن يرسم طريق النصر

ونعود إلى الآية الكريمة من جديد .

« إن اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »[١].

إن هذا العهد والتعاقد ، بين الله والمؤمنين ، إنما هو عهد الإيمان ، يبيع فيه المؤمن نفسه وماله ، يقدمهما إلى الله فلا يبخل بالمال فى سبيله سبحانه ، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - هو أول خطوة أساسية جوهرية فى طريق النصر - بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك قط أساس مستقيم ، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة فى سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول .

على أن القرآن لا يعد المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه فى سبيل الله .

« إنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[٢].

أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متأرجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن الخروج إلى الجهاد ، بل تخلفاً عنه .

« لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ، إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

(١) التوبة - آية : ١١١ .

(٢) الحجرات - آية : ١٥ .

الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ »[١] .

بل إن وجود العناصر التى لا يملأ الإيمان أفئدتها فى صفوف المجاهدين تضر بقضيتهم .

« لَوْ خَرَجُوا فيكُمْ ما زَادُوكُمْ إِلاَّ خبالا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ »[٢] .

وضعفاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك .

« فَرِحَ الْمخَلَّفُونَ بِمَقْعَدهِمْ خلافَ رَسُولِ الله ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبيل الله ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ »[٣] .

ويأمر القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة فى الجهاد .

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُروج ، فَقُلْ لَنْ تَخرُجُوا مَعِيَ أبدًا ، وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُود أَوَّلَ مَرَّة ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالفينَ » .

هذا الإيمان إنما هو إيجابى : يستعد ويهيئ للأمر عدته ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا ويحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة الثانية فى طريق النصر ممثلة فى قوله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » .

---

(١) التوبة - آيتا ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) التوبة - آية : ٤٧ .

(٣) التوبة - آية : ٨٣ .

وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية ، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية .

ومما لا شك فيه أن التعبئة الروحية هي قوة دافعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(١) .

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافرًا .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التى رسمها القرآن فى طريق النصر ، وهى وضوح الهدف ، والهدف القرآنى من الجهاد ، ولا بأس من ذكره مرة ثانية - ليس عرضاً ماديًا أو حظًا دنيويًا ، وما كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، إنما هجرته إلى الله ورسوله ، ومعنى ذلك : أن هدف الجهاد ، إنما هو إعلاء كلمة الله .

وكلمة الله هى الحق . وهى العدالة وهى الرحمة . وهى الأخوة ، وهى السلام العالمى ، بالنسبة للفرد فى نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، أو بالنسبة للأمة فى كرامتها وعزتها ، وكل مقدساتها .

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ »(٢) .

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تَجْعَلَ الأمة فى جهادها كالبنيان المرصوص ، ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التى رسمها القرآن فى سبيل النصر .

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ »(٣) .

---

(١) الأنفال - آية : ٤٥ .
(٢) النساء - آية : ٧٦ .
(٣) الصف - آية : ٤ .

« وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »(١).

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا »(٢).

فإذا ما وسوس الشيطان بنزاع أو خلاف ، وإذا ما تحدثت النفس بفرقة وشقاق ، فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة :

« فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(٣).

إن الأمة التي تنصر الله باتباعها للدين الخالص ، قد ضمن الله لها النصر ووعدها به ، ووعد الله لا يتخلف .

« إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »(٤).

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »(٥).

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه ، والثقة فيه وحده والاعتماد عليه لا على النفس أو القوة المادية ، أو أى شيء آخر ، وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى تفوقهم وعدتهم وعتادهم وقالوا :

« لن نغلب اليوم من قلة » .

كان ذلك فى غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويراً قوياً فقال سبحانه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ،

---

(١) الأنفال – آية : ٤٦ .

(٢) آل عمران – آية : ١٠٢ .

(٣) النساء – آية : ٥٩ .

(٤) – محمد – آية : ٧ .

(٥) الحج – آية : ٤٠ .

فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُوله وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

« سننتصر »

خلاصة و إيضاح لعدة زوايا

سننتصر بإذن الله ، ولقد بين الله سبحانه لنا عوامل النصر ووسائله ، فقال سبحانه فى صورة شاملة :

« يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »(١) .

إن الله سبحانه وتعالى يخاطب بذلك المؤمنين الذين وجدت نفوسهم حلاوة الإيمان ، فكان الله ورسوله أحب إليهم من كل شىء : من المال والولد والنفس والنفيس ... إنه سبحانه يخاطب المؤمنين الصادقين الذين وصفهم فى تأكيد دقيق بقوله :

« إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُوله ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وأول عامل من عوامل النصر إذن إنما هو الإيمان . الإيمان الذى باع الإنسان فيه نفسه وماله لله سبحانه بثمن هو الجنة :

---

(١) الأنفال – آيتا : ٤٥ ، ٤٦ .

« إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون » .

أما العامل الثانى ، الذى بينه الله سبحانه فى الآية : فهو الثبات : الثبات فى كل ما يتصل بالإيمان ، وما يتصل بالجهاد ، الثبات فى الإعداد المادى ، والثبات فى لقاء العدو ، والثبات فى الإعداد الروحى ، والثبات على وجه العموم فى التعبئة بجميع ألوانها ، روحية إيمانية ، أو مادية حربية .

أما العامل الثالث فهو : ذكر الله ، ولم يأمر الله بالذكر دون وصف له ، وإنما وصفه بالكثرة قائلا :

« وَاذْكُرُوا اللهَ كثيراً » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدوة حسنة فى هذا ، لقد كان يعبئ التعبئة الكاملة دون أن يترك شيئاً صغيراً كان أو كبيراً للمصادفة ، أو للحظ ، ثم يلجأ إلى الله بالدعاء ، والذكر ، من ذلك مثلا : قوله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم ... » .

أما العامل الرابع : فهو طاعة الله ورسوله : طاعتهما فيما أمرا من مسائل الجهاد وغيره ، ومما أمرا به فى مسائل الجهاد إعداد القوة بأقصى ما يمكن من طاقة ، يقول تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ومن أوامر الله العامة الشاملة ، التقوى ، ولقد وعد الله المتقين بالإخراج من كل حرج أو ضيق :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ منْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب » .

أما العامل الخامس : فهو عدم النزاع لأنه سبب الفشل ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، أى قوتكم وغلبتكم ...

والعامل الأخير الذى ختم الله به عوامل النصر ، هو الصبر : الصبر فى اللقاء ، والصبر على طاعة الله ، والصبر على مخالفة الهوى والشهوات والنزعات الشيطانية ، فإذا ما حققنا ذلك كان الله معنا ...

« إن الله مع الصابرين » .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسبما رواه ابن أبى حاتم :

« من أحب أن يكون أقوى الناس ، فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله عز وجل » .

وتوكل المؤمنين على الله سبحانه ، شعار لهم ملازم ، وصفة من صفاتهم ، لا تفارقهم :

إنهم متوكلون عليه مع إحكام جميع أمورهم ، وإتقان جميع شئونهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل عال من أمثلة ذلك :

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يحكم أمره إحكاماً غير منقوص ، وهو من قبل الشروع فى إحكام العمل متوكل على الله ، وفى أثناء القيام بإحكام العمل متوكل على الله ، وبعد الانتهاء من إحكام العمل متوكل على الله .

ها هو ذا صلى الله عليه وسلم فى بدر يعبئ الصفوف ليلا ، ويذهب إلى أصحاب النبل فيوصيهم بالطريق الأمثل ، ويمر بالقبائل ، فيرشد كل قبيلة إلى شعارها ، وينظر فى الأمر من قريب ومن بعيد ، ويأمر الجيش كله أمراً حاسماً ، ألا يحملوا على العدو حتى يأمرهم ، فلما تم له من الإعداد

والتهيئة ما أحب استقبل القبلة والتجأ إلى الله متضرعاً مستنجداً خاشعاً :

اللهم أنجزلى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد بعد فى الأرض أبداً .

واستمر يستغيث بربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضى الله عنه ، فأخذ رداءه فرده ، وأخذ يقول : يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

وبعد : فهذا هو التوكل الإسلامى ، إنه إعداد ، وكفاح ، وجهاد ، واستناد إلى الله فى الصغير من الأمور والكبير منها :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

أما فيما يتعلق بالدعاء خاصة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يدعه فى الحروب وما كان يدعه فى غير الحروب . ولقد رويت فى الحرب أدعية هى على وجه العموم داخلة فى الأدعية التى يتجه فيها الإنسان إلى الله طالباً كشف الكرب ورفع المقت .

يقول الإمام النووى فى كتاب الأذكار بالنسبة للمقاتلين :

ويستحب استحباباً متأكداً أن يقرأ ما تيسر له من القرآن وأن يقول فى دعاء الكرب وهو فى الصحيحين :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم .

ويقول :

حصنتنا كلنا أجمعين بالحى القيوم الذى لا يموت أبدًا ، ودفعت عنا السوء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

خاتمة

٭ قوانين ثابتة من القرآن الكريم :

لقد تحدث القرآن عن القوانين التي إذا راعاها الإنسان باعتباره فرداً ، وعمل على تحقيقها ، فى جانب الخير ، وعلى اجتنابها إذا كانت تعبر عن مجال اجتناب الشر ، فإنه يسعد لا محالة ، ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى ذلك .

وذكر الله سبحانه وتعالى ، فى القرآن الكريم ، القوانين للمجتمع ، حتى إذا اتبعها كان مجتمعاً صالحاً ، عزيزًا بعزة الله ، منصوراً بنصر الله . ونذكر هنا بعض هذه القوانين ، نذكرها بألفاظها ، ونذكرها متناثرة ، دون ترتيب معين ، والقرآن ملىء بشرح قوانين السعادة للفرد وللمجتمع ، وما على الإنسان إلا أن يتدبرها فى كتاب الله الذى يهدى للتى هى أقوم .

٭ من قوانين الخلافة فى الأرض :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ .. لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً » .

٭ من قوانين سعة الرزق :

« اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ

بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أنهارًا » .

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » .

• من قوانين التيسير :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ... فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » .

• من قوانين التعسير :

« وَأما مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » .

• من قوانين الفرج :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .

• من قوانين السعادة :

« مَنْ عَملَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بركاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ » .

• من قوانين الهداية والبشرى :

« وَالَّذينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنَابُوا إلى الله .. لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عبـاد الَّذين يَسْتَمعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ اولَئكَ الَّذينَ هَداهُمُ اللهُ وَاولَئكَ هُمْ اولُو الْأَلْبَابِ » .

• من قوانين سوء الخاتمة :

« فَأَمَّا مَنْ طَغَى،وَآثَرَ الْحياةَ الدُّنْيا،فَإنَّ الْجحيمَ هيَ الْمأْوَى » .

« إنَّ الَّذين فَتَنُوا الْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنات . ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ... فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ » .

• من قوانين حسن الخاتمة :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهوَى ... فَإنَّ الْجَنَّةَ هيَ الْمأْوَى » .

« إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى منْ تَحْتها الْأَنْهارُ ذَلكَ الْفَوْزُ الْكَبيرُ » .

• من قوانين النصر :

« إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ » .

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزيزٌ . الَّذينَ إنْ مَكَّنَّاهم فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوف وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلله عاقبَةُ الْأُمورِ » .

وبعد :

فإننا هنا إنما ذكرنا نماذج مما يجب أنْ يتدبره المؤمنون فى القرآن الكريم ، ليكفلوا لأنفسهم ، بتوفيق الله ، حياة عزيزة سعيدة .

وشهر القرآن هو أنسب زمن للابتداء فى الاتجاه إلى الله ، أو فى تقوية الاتجاه إليه ، وذلك بتدبر القرآن الكريم ، واتباع ما فيه .

ونختم الكتاب كله بقوله تعالى :

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

وبقوله تعالى :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

والحمد لله أولا وآخراً ، والصلاة والسلام على أكرم خلقه وأحبهم إليه ، الذى كان القرآن خلقه ، والذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

فهرس

الصفحة

الصفحة

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الصفحة

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١٩٦١٩	
الترقيم الدولى	977-02-6376-1	ISBN

١/٢٠٠٢/٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن فى شهر القرآن » ، إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .

دار المعارف

٠٠١١٣٦/٠١